مجلة
جامعة المهرة
للعلوم الإنسانية
مجلة علمية نصف سنوية محكمة
العدد السادس عشر- ذو القعدة 1445هـ- يونيو 2024م
ISSN: 2707- 8655
EISSN:2707-8663

الهدي النبوي في غرس القيم وتنميتها؛ الخصائص المنهجية، والأساليب العملية

د. عبد الرزاق ادعيكل[1]

ايميل: abdorrazzak.daykel@gmail.com تلفون: 0678386437

ملخص

يسعى هذا البحث إلى بيان الهدي النبوي في غرس وترسيخ القيم الإسلامية في النفوس للبلوغ بها إلى أسمى مراقي التزكية؛ قصد النهل من هذا المعين الصافي لبعث القيم في نفوس الناس من جديد، وإحياء ما اندرس منها وخَلِق أو كاد، فالتوسل بالسيرة النبوية في هذا الشأن أمر ضروري؛ كيف لا وهي سيرة من أدبه ربه فكان ﷺ أحسن الناس خلقا؟ فبعث لإتمام مكارم الأخلاق، فكان خير مرب، وقد جمع هديه ﷺ من الخصائص أعظمها، ومن الأساليب أنفعها، غير أن الناس متفاوتون في الاستفادة من هديه ﷺ، كما أن النظر في كثير من الجهود التي بذلت في هذا الباب يفيد أن معظمها مفتقر إلى توجيهات علمية منهجية تمكنها من تجاوز أوجه القصور؛ فلذلكم جاء البحث لبيان ثلاثة أمور عظيمة النفع؛ أولها: الخصائص العامة التي تميز بها الهدي النبوي في تنمية القيم، ثانيها: الأساليب العملية المتنوعة التي سلكها ﷺ لترسيخ القيم، وثالثها: بعض أوجه القصور في تنمية القيم وتثبيتها في الواقع المعيش.

الكلمات المفتاحية: الهدي النبوي – غرس القيم– الخصائص المنهجية – الأساليب العملية.

Prophetic guidance in instilling and developing values; Methodological characteristics and practical methods.

Abstract

This research seeks to clarify the Prophet's guidance in instilling and consolidating Islamic values in souls to reach the highest levels of purification. The intention is the resurrection of values in the souls of people, and to revive what have been collapsed from them, so seeking the Prophet's biography in this regard is necessary. How could it not be, since it was one of the manners of his Lord, and he, may God

(1) أستاذ العلوم الشرعية، وباحث في السيرة النبوية، المغرب.

bless him and grant him peace, was the best of people in character? So he was sent to complete good morals, so he was the best educator, and his guidance, may God bless him and grant him peace, combined the greatest characteristics and the most useful methods, but people differ in their benefit from his guidance .
Looking at many of the efforts made in this field indicates that most of them lack systematic scientific guidance that would enable them to overcome their shortcomings. Therefore, the research came to clarify three matters of great benefit: The first: the general characteristics that distinguished the Prophet's guidance in developing values, the second: the various practical methods that the Prophet, may God bless him and grant him peace, followed to consolidate values, and the third: some shortcomings in developing values and establishing them in the living reality.

Keywords: Prophetic guidance - instilling values - methodological characteristics - practical methods.

مقدمة:

أريد بهذا البحث إبراز أهمية السيرة النبوية في ترسخ القيم الإسلامية، وبيان منهج النبي ﷺ وهديه في غرسها وتنميتها في النفوس للبلوغ بها إلى أسمى مراقي التزكية؛ وكيف يمكننا أن ننهل من هذا المعين الصافي واليَنبوع الذي لا يَنْضُبُ لبعث القيم في نفوس الناس من جديد، وإحياء ما اندرس منها وخَلِق أو كاد، فالتوسل بالسيرة النبوية في هذا الشأن لا مناص منه؛ لأنها من أنفع العلوم في بناء القيم وأعظمها أثرا في ترسيخها وتثبيتها وبعثها في النفس.

ولا ريب أن الحاجة داعية إلى مثل هذا العمل الجلل أكثر من أي وقت مضى؛ خاصة بعدما صارت أخلاق وقيم كثير من الناس أسوأ من أخلاق وقيم الجاهلية، وفسدت الأذواق العامة، وتفشت الفواحش وعمت المنكرات وطمت حتى انحطت البشرية إلى دركات لم تعرفها الجاهلية، وإنما الأمم الأخلاق، فإذا فسدت لم يكن لها من الحضارة والرقي والإنسانية خَلاَق؛ إذ الأخلاق من أعظم ما يميز الإنسان عن الحيوان[1].

والتربية على القيم وتنميتها وترسيخها مسؤولية مشتركة بين الآباء، والخطباء، والمعلمين، والمرشدين، والمربين، والإعلاميين، والوعاظ، والباحثين...وكثير من هؤلاء يحسب

[1] – ذكر طه عبد الرحمن: "أن الأخلاقية هي ما يكون به الإنسان إنسانا، وهي التي تجعل أفق الإنسان مستقلا عن أفق البهيمة" سؤال الأخلاق(14).

أن بناء القيم وترسيخها عمل في غاية اليسر والسهولة، وأنه لا يحتاج إلى كثير من العلم، وأنه بإمكان أي إنسان أن يتولى هذا الأمر، وربما يظن كثير منهم أن حفظ بعض الآيات القرآنية والاطلاع على بعض الأحاديث النبوية المتعلقة بهذا الشأن يكفي ويغني.

غير أن عدم فلاح كثير من الناس في هذا الباب، وعدم قدرتهم على تحقيق الغايات المنشودة، بالإضافة إلى تحديات العصر الكبرى، وكثرة الوسائل والمؤسسات المسخرة لهدم صرح منظومة القيم؛ كل ذلك يؤكد أن الأمر يحتاج إلى شيء كثير من العلم وحسن الفهم وبالغ الحكمة، وفقه عميق للواقع لحسن تنزيل معاني وأسرار النصوص الشرعية على الأحوال المختلفة؛ فحسن استثمار الأحاديث وأحداث السيرة النبوية مفتقر –مثلا– إلى معرفة سياق الأحاديث والأحداث، وأحوال المخاطبين بتلك الأحاديث، وأسباب الورود أو الوقائع ؛ ليكمل النظر في هدي النبي ﷺ من مختلف الجهات، ونتخذه ﷺ قدوة وأسوة في المنهج والعمل ونحن على بصيرة، فوجب إذن العلم بهديه لتحقيق التأسي على الوجه الأكمل؛ إذ فيه غنية لإدراك البغية.

ولأجل ذلكم أحببت الإسهام في هذا الباب ببحث موجز، وقد سميته:

"الهدي النبوي في غرس القيم وتنميتها؛ الخصائص المنهجية، والأساليب العملية".

إشكالية الموضوع: كيف يمكننا أن نستفيد من الهدي النبوي في تنمية القيم وترسيخها؟ وما أهم الخصائص التي ميزت هديه ﷺ وكان لها أثر بالغ في السمو بالقيم إلى أسمى المراتب؟ وكيف يمكننا اليوم تجاوز أهم أوجه القصور في الجهود التي تبذل لتنمية القيم؟

محاور الموضوع: لتحقيق المقصود من البحث جعلته في ثلاثة مطالب؛ حيث خصصت المطلب الأول منه للحديث عن الخصائص المنهجية للهدي النبوي في تنمية القيم وترسيخها، والمطلب الثاني للحديث عن الأساليب النبوية في تنمية القيم وترسيخها، والمطلب الثالث للكلام عن بعض أوجه القصور في تنمية القيم وترسيخها في الواقع المعيش.

الهدف العام: الإسهام بموجهات منهجية وعملية لتجويد وترشيد عملية تنمية القيم وترسيخها.

المنهج المعتمد: لتحقيق الغايات المنشودة من هذا البحث سلكت المنهج الوصفي، والمنهج التحليلي؛ فقد تتبعت كثيرا مما جاء في كتب السنة والسيرة، وأمعنت النظر فيه لكشف أهم الخصائص المنهجية التي تميز بها الهدي النبوي في تنمية وترسيخ القيم، وإبراز جملة من أهم

الأساليب النبوية التي يجب استثمارها في هذا الشأن، وخلصت من خلال ذلك وبالنظر في بعض مشاريع تنمية القيم في الواقع المعيش إلى جملة من أوجه القصور التي يجب تجاوزها عن طريق حسن استثمار الهدي النبوي.

المطلب الأول: خصائص الهدي النبوي في غرس القيم وتنميتها.

لقد تميز الهدي النبوي بجملة من الخصائص العامة التي تدل على حكمة النبي ﷺ وسر فلاحه وكمال وجمال منهجه في ترسيخ القيم، وصلاحيته لكل الأعصار والأمصار، فلذلك يجدر بنا أن نكشف بعضا من أهم هذه الخصائص قصد السعي إلى تحقيقها في المشاريع التربوية والمناهج المعاصرة التي تهتم بالقيم الإسلامية؛ إذ لا يمكن لها أن تحقق الفوائد المرجوة وهي بعيدة عن الهدي النبوي الذي هو خير الهدي وأفضله، فعلى قدر الاستفادة منه يكون الرشد والسداد، وعلى قدر البعد عنه يكون الغي والفساد.

وبعد النظر تبين لي أن مما ميز هدي النبي ﷺ، وكانت له آثار إيجابية جلية في تنمية القيم وترسيخها الخصائص الآتية: الجمع بين حفظ القيم من جانب الوجود وحفظها من جانب العدم، الجمع بين مخاطبة العقول ومخاطبة القلوب، الجمع بين الترغيب والترهيب، المداومة مع الاقتصاد والتوسط، المبادرة إلى ترسيخ القيم في الصغر قبل الكبر، تنوع الأساليب وتكاملها، الشمول، حسن اختيار الأساليب والأحوال، التأني وعدم استعجال النتائج.

1- الخصيصة الأولى: الجمع بين حفظ القيم من جانب الوجود ومن جانب العدم.

مما ميز المنهج النبوي أنه جمع بين تنمية القيم المحمودة وترسيخها، وبين محاربة القيم المذمومة واجتثاثها؛ فلم يقتصر ﷺ على غرس المحاسن والفضائل والترغيب فيها، أو على محاربة المساوئ والرذائل والتحذير منها، بل جمع بين الحسنيين؛ ويمكن أن أعبر عن ذلك بـ"حفظ القيم من جانب الوجود، ومن جانب العدم"؛ فأما حفظها من الجانب الأول فيكون بما "يقيم أركانها ويثبت قواعدها"، وأما حفظها من الجانب الآخر فيكون بما "يدرأ عنها الاختلال الواقع أو المتوقع فيها"[1].

[1] – هذه العبارات ذكرها الشاطبي في الموافقات للشاطبي: 18/2، في شأن الضروريات الخمس، لكنها تصدق في حق القيم أيضا، وكيف لا وهي جزء عظيم من الدين، بل هي متعلقة بالضروريات كلها.

وهذا المنهج النبوي منهج قرآني رباني دل عليه استقراء الآيات العامة التي انتظمت كل القيم، والآيات الخاصة بقيمة من القيم؛ فمن الآيات العامة[1] التي تبين أن الدعوة إلى كل القيم المحمودة، والنهي عن كل القيم المذمومة مما ميز منهج النبي ﷺ: قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾[2]؛ فالتعريف في "المعروف والمنكر" تعريف الاستغراق المفيد العمومَ[3]، فيشمل بذلك المعروفُ كُلَّ القيم الحميدة، كما يشملُ المنكرُ كُلَّ القيم الذميمة؛ قال رشيد رضا: "المعروف ما تعرف العقول السليمة حسنه، وترتاح القلوب الطاهرة له لنفعه وموافقته للفطرة والمصلحة، بحيث لا يستطيع العاقل المنصف السليم الفطرة أن يرده أو يعترض عليه إذا ورد الشرع به. والمنكر ما تنكره العقول السليمة، وتنفر منه القلوب، وتأباه على الوجه المذكور أيضا"[4].

وهذا المنهج الرباني الذي بعث به النبي ﷺ هو الذي ارتضاه الله لهذه الأمة، والأدلة عليه من كتاب الله كثيرة؛ منها: قوله سبحانه: ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ﴾[5].

فقد تبين أن الآية السابقة وما جرى مجراها من الآيات[6] جمعت بين الأمر بالمعروف، وبين النهي عن المنكر بصيغة العموم، ولاشك أن الأمر بكل معروف نهي عن ضده الذي هو كل منكر، فالأمر بالقيم المحمودة نهي عن القيم المذمومة، ومع ذلك لم تقتصر الآيات على الأمر بالمعروف، أو على النهي عن المنكر، بل جمعت بينهما؛ فمما يمكن أن يستفاد من هذا

---

(1) – أما الآيات الخاصة بقيمة معينة فكثيرة جدا.

(2) – [الأعراف: 157].

(3) – التحرير والتنوير : 40/4.

(4) – تفسير المنار: 196/6.

(5) – [آل عمران: 104]. بينما قال ﷻ في المنافقين: ﴿ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتُ بَعۡضُهُم مِّنۢ بَعۡضٖۘ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمُنكَرِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمَعۡرُوفِ﴾ [التوبة: 67].

(6) – مثل: قوله ﷻ: ﴿يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ ﴾ [آل عمران: 114]، وقوله ﷻ: ﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ [التوبة: 71]، وقوله ﷻ: ﴿ٱلۡأٓمِرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَٱلنَّاهُونَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ ﴾ [التوبة: 112]، وقوله ﷻ: ﴿ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُواْ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَنَهَوۡاْ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۗ ﴾ [الحج: 41].

الجمع الذي ورد في تلكم الآيات العظيمة أن عملية غرس القيم وحدها لا تكفي، بل لابد معها من حفظها من الاجتثاث؛ أي: لا بد من حفظها من جانب الوجود، ومن جانب العدم كما تقدم.

وهذا المنهج ثابت في كتب السنة والسيرة –قولا وفعلا– بنصوص عامة وأخرى خاصة[1]؛ فمن النصوص العامة: قول النبي ﷺ: «والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر، أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا منه ثم تدعونه فلا يستجاب لكم»[2].

ومما ورد منها في هذا الباب أيضا: الأحاديث التي تأمر بحسن الخلق أو تنهى عن سوء الخلق دون تعيين خلق للدلالة على الشمول والعموم، وهي كثيرة العدد ومتنوعة الأساليب؛ منها ما جاء عن جابر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: « إن من أحبكم إلي وأقربكم مني مجلسا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا»[3].

كما أن منهج حفظ القيم من جانب الوجود وجانب العدم ثابت بنصوص خاصة؛ أي بالحث على قيمة معينة والترغيب فيها، مع التحذير أو الترهيب من ضدها؛ وقد كان من الممكن أن يكتفي النبي ﷺ –مثلا– بالأمر بالتوحيد، والعدل، والصدق والأمانة، وصلة الأرحام، وحسن الجوار، والإحسان، والجود، والتواضع...لأن الأمر بهذه الفضائل نهي عن أضدادها، لكنه ﷺ حرص كل الحرص على النهي عن القيم التي تضادها؛ فنهى ﷺ عن الشرك، والظلم، والكذب، والخيانة، وقطيعة الأرحام، وسوء الجوار، والإساءة، والبخل، والكبر...والنصوص في هذا الباب كثيرة جدا، إلا أنها ضربان؛ ضرب اجتمع فيها الأمر بالقيم الحميدة مع النهي عن القيم الذميمة، وضرب آخر أمر بالفضائل تارة، ونهى عن الرذائل تارة أخرى.

والسر هاهنا –وهو المقصود من سوق ما سبق– أنه لا يمكن تثبيت القيم المحمودة في المجتمع وترسيخها وجني ثمارها إلا بالجمع بين الترغيب فيها والتمكين لها، وبين النهي عن

---

[1] – الأحاديث الخاصة بقيمة معينة من القيم كثيرة جدا. والشواهد على ذلك من السيرة النبوية كثيرة أيضا، لا تخفى على من له أدنى معرفة بسيرته ﷺ.

[2] – سنن الترمذي، كتاب، أبواب الفتن، باب ما جاء في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: 468/4.

[3] – سنن الترمذي، أبواب البر والصلة، باب ما جاء في معالي الأخلاق: 370/4، صححه الألباني في سلسلة الأحاديث الصحيحة: 418/2.

ISSN: 2707- 8655
EISSN:2707-8663

القيم المذمومة ومحاربتها بشتى السبل الممكنة، إذ البناء وحده غير كاف، وكذلك الغرس وحده؛ وقديما قال الشاعر "صالح بن عبد القدوس"[1]:

مَتى يَبلُغُ البُنيانُ يَوماً تَمامَهُ إِذا كُنتَ تَبنيهِ وَغَيرُكَ يَهدِمُ

فكيف والحال أن من يهدم صرح منظومة القيم أكثر عددا، وأقوى عدة، مع أن عمله أيسر وأسهل، وما أحسن كلام محمد بن أحمد الرَّقي حيث قال[2]:

أرى ألفَ بانٍ لا تقومُ لهادمٍ فكيفَ بِبانٍ خَلفَه ألفُ هَادِمِ

فكما أن البنيان لا يمكن أن يبلغ تمامه إلا بتحصينه من الهدم، وأن الأشجار لا تجنى ثمراتها إلا بتعهدها ورعايتها وحفظها من الاقتلاع والاجتثاث، فكذلك شأن القيم المحمودة ومحاسن الأخلاق؛ لا يكون لها أثر في المجتمع، ولا يتفيأ الناس ظلال فضلها إلا بالسعي إلى ترسيخها وتنميتها، مع محاربة ما يناقضها من الرذائل والفواحش والمنكرات، خاصة أن بناءها يتطلب منهجا قويما وجهدا كبيرا، بينما لا يحتاج إلى ذلك عند هدمها ونقضها.

2- الخصيصة الثانية: المداومة على تنمية القيم مع الاقتصاد أو التوسط.

على الرغم من أن ترسيخ القيم المحمودة من أعظم مقاصد بعثة النبي ﷺ، وعلى الرغم كذلك من كامل حرصه ﷺ على تحقيق هذا المقصد ومداومته على تربية أصحابه ﷺ وتزكيتهم- لم يكن من منهجه ﷺ أن يكثر عليهم فيطيل الكلام في المجالس المخصصة لتنمية الفضيلة أو إماتة الرذيلة، بل كان هديه ﷺ الإيجاز والاقتصاد، فقد يصعد ﷺ المنبر لأجل قيمة فيخطب خطبة موجزة جدا، لكنها تكون شافية كافية.

والسر أنه ﷺ أوتي جوامع الكلم[3]، فكان ينطق بالألفاظ اليسيرة للدلالة على معان كثيرة، فلم يكن ﷺ كثير الألفاظ والمباني، بل كان كثير المقاصد والمعاني[4]، وهو منهجه وهديه ﷺ العام في كلامه، وهديه الخاص أيضا في تنمية القيم وترسيخها، والأمثلة في هذا الباب كثيرة يصعب تتبعها وحصرها، وحسبنا منها بعض الأحاديث؛ منها: قوله ﷺ: «لا إيمان لمن لا

---

(1) – البيان والتبين: 258/3.

(2) – الدر الفريد وبيت القصيد: 311/3؛ روض الأخيار المنتخب من ربيع الأبرار: 256.

(3) – صحيح البخاري، كتاب التعبير، باب المفاتيح في اليد: 36/9؛ صحيح مسلم، كتاب المساجد: 64/2.

(4) – ينظر: إكمال المعلم: 466/6.

أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له»[1]، وقوله ﷺ: «الحياء لا يأتي إلا بخير»[2]، وقوله ﷺ: «إن الله كتب الإحسان على كل شيء»[3]، وقوله ﷺ: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه»[4]، وقوله ﷺ: «لا يدخل الجنة قاطع»[5]، وقوله ﷺ: «لا يدخل الجنة قتات»[6]، وقوله ﷺ: «من لم يرحم صغيرنا، ويجل كبيرنا فليس منا»[7].

فمنهجه ﷺ في تنمية القيم وترسيخها كان وسطا بين الغلو والتقصير؛ أي أنه ﷺ جمع بين المداومة والاقتصاد، وذلك لعلمه ﷺ أن خير العمل وأنفعه أدومه وإن قل[8]، ولعل السر هاهنا أن الكلام الموجز يكون أكثر وقعا وأشد أثرا في النفوس، وأن إكثار الكلام وإطالته وتكراره في أوقات متقاربة سبب الملل والسآمة؛ وهو ما يمكن أن يستفاد من حديث ابن مسعود ﷺ إذ قال: كان النبي ﷺ يتخولنا بالموعظة في الأيام كراهة السآمة علينا"[9]؛ قال النووي: "وفي هذا الحديث الاقتصاد في الموعظة لئلا تملها القلوب فيفوت مقصودها"[10].

وقال ابن دقيق العيد: "انظر إلى الحِكْمة الشَّرعية في جعلها مرةً في الأسبوع؛ لأنَّ طولَ تركِها يُطْغي النفسَ، ويقوّي دواعِيَها المذمومةَ، فربما عَسُرَ ردُّها بعد تمكُّنِها من النَّفس، وكثرةِ فعلها فيه ما ذكرنا من إبطال فائدتها وحكمها، فتوسط في ذلك"[11]؛ فينبغي أن نسلك نحن أيضا مسلك التوسط، لأن عامة الناس في زماننا سرعان ما يملون، فأغلبهم ميالون إلى التوجيهات

---

[1] – مسند أحمد، مسند المكثرين من الصحابة: 376/19.

[2] – صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب الحياء: 29/8؛ صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب شعب الإيمان: 46/1.

[3] – صحيح مسلم، كتاب كتاب الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان، باب الأمر بإحسان الذبح والقتل: 72/6.

[4] – صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب: المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده: 11/1؛ صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان تفاضل الإسلام، وأي أموره أفضل: 48/1.

[5] – صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب إثم القاطع: 5/8؛ صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب صلة الرحم، وتحريم قطيعتها: 46/1.

[6] – صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب ما يكره من النميمة: 17/8؛ صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان غلظ تحريم النميمة: 71/1.

[7] – الأدب المفرد للبخاري، باب فضل الكبير: 130.

[8] – مسند أحمد، مسند المكثرين من الصحابة: 255/14.

[9] – صحيح البخاري، كتاب العلم، باب ما كان النبي ﷺ يتخولهم بالموعظة والعلم كي لا ينفروا: 25/1؛ صحيح مسلم، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب الاقتصاد في الموعظة: 142/8.

[10] – المنهاج للنووي: 164/17.

[11] – شرح الإلمام بأحاديث الأحكام لابن دقيق العيد: 96/5.

ISSN: 2707- 8655
EISSN:2707-8663

الموجزة، فإذا أكثرت عليهم ربما كرهوا نصيحتك، وربما نفروا وفروا، وكم رأينا من الأبناء الذين لا يريدون سماع نصائح آبائهم في شأن القيم؛ لأنهم يكثرون عليهم، بينما يحبون أن يسمعوا ممن عرف بحسن إيجازه واختصاره، والأمر نفسه قد يصدق في حق البعض من المدرسين، والخطباء، وعامة المربين.

فلما كانت القيم تَخْلَق كما يَخْلَق الثوب وجبت المداومة على تنميتها؛ لأجل تجديدها في النفس، كيف لا وقد أمرنا بتجديد الإيمان لما يصيبه من البلى[1]، وهذا مع التوسط والاقتصاد دون الإكثار المستثقل أو الحشو الممل.

3- الخصيصة الثالثة: حسن اختيار الأحوال والأساليب.

معلوم أن الإنسان تعتريه أحوال مختلفة لا يكون في بعضها مهيئا لقبول إرشاد أو توجيه أو تربية أو تزكية، بله الانتفاع بها، لذلك كان من هدي النبي ﷺ اختيار أفضل حال ملائم، وأحسن وقت مناسب لتربية أصحابه وتزكيتهم؛ قال الخطابي في شرح قول ابن مسعود: «كان النبي ﷺ يتخولنا بالموعظة في الأيام؛ كراهة السآمة علينا»؛ و"قوله: "يتخولنا"؛ معناه: يتعهدنا، أي: يراعي الأوقات في موعظته، ويتحرى منها ما يكون مظنة القبول"[2].

وكان أبو عمرو بن العلاء يقول: إنما هو يتحولهم بالحاء؛ أي: ينظر حالاتهم التي ينشطون فيها للموعظة والذكر فيعظم فيها"[3]؛ لأنه لم يكن همه ﷺ الكلام ولكن مقصوده وأثره، فلا يربيهم أو يعظهم أو يعلمهم إلا في الوقت الذي يرى أنه أصلح وأنفع.

ومن حسن اختياره ﷺ للأحوال أنه كان يستثمر بعض المواقف لتنمية بعض القيم وترسيخها لما لها من أثر بالغ، ونظرا لما يكون عليه الفرد من الاستعداد النفسي لتقبل ما يلقى إليه والانتفاع به، ومن ذلك أن يقع حادث مهم، أو يرى ﷺ شيئا يمكن أن يضرب به المثل ومعه بعض أصحابه؛ كما حصل لما مروا بِجَدْيٍ أَسَكَّ ميت. وربما يكون الحال غير مناسب، والرجل غير مهيأ لتنمية قيمه، فيعمد النبي ﷺ أول الأمر إلى تهييء الرجل وإعداده للتلقي عن

---

[1] – عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الإيمان ليخلق في جوف أحدكم كما يخلق الثوب الخلق؛ فسلوا الله أن يجدد الإيمان في قلوبكم» المعجم الكبير للطبراني حديث رقم (14668): 69/14.

[2] – أعلام الحديث: 194/1.

[3] – كشف المشكل من حديث الصحيحين: 306/1.

طريق الابتسامة في وجهه، وتقريبه منه، أو وضع يده عليه، أو الكلام معه في شأن آخر غير القيمة التي يريد تنميتها وترسيخها؛ فيتدرج معه ليشرع في المقصود.

ومن الأمثلة الدالة على حكمة النبي ﷺ وحسن اختياره الأسلوب المناسب للحال والمقام: الأسلوب الذي سلكه لتنمية وترسيخ قيمة العفة في نفس الشاب الذي استأذنه في الزنا[1]؛ فلم يقل النبي ﷺ لهذا الشاب: إن الزنا من أكبر الكبائر، وإنها من الخبائث، ولم يتل عليه ما نزل في شأن هذه الفاحشة من الآيات القرآنية[2]، بل عمد ﷺ إلى إقناعه بالأسلوب العاطفي؛ حيث قربه منه (أدناه)، مع تعزيزه بالأسلوب العقلي المتناغم مع نخوة العرب وعزة أنفسهم؛ فقال ﷺ: أتحبه لأمك؟.. أفتحبه لابنتك؟...أفتحبه لأختك؟..أفتحبه لعمتك؟...أفتحبه لخالتك؟ وربما كان يكفي قولُه ﷺ: أتحبه لأمك؟ لكنه ﷺ عَدَّدَ محارم الشاب لتمام الإقناع فيتحقق به الامتناع.

ومن حسن اختياره ﷺ للأسلوب المناسب أنه كان يسلك مع البعض مسلك الرفق، ومع البعض مسلك الشدة والحزم، أو الغضب، أو الهجر، وقد يصعد المنبر ويخطب، فيقول: ما بَالُ قَوْمٍ ... فأحوال المخاطبين مختلفة، ومقاماتهم متباينة ومتفاوتة، لذلك كانت الأساليب النبوية تراعي حال المخاطب ؛ أهو من الصغار أم من الكبار؟ أهو من الرجال أم من النساء؟ أهو من السابقين الأولين أم من الأعراب والطلقاء والمؤلفة قلوبهم، وحديثي عهد بالإسلام؟ أهو من الضعفاء والمساكين أم لا؟ أهو من الأشراف أم من عامة الناس؟...

فالقلوب والعقول لها مفاتيح متنوعة؛ فما يفتح قلب هذا قد لا يفتح قلب ذاك، لذلكم كان حسن اختيار المفاتيح أمرا منهجيا لازما. كما أن الأبواب التي يمكن إيصال الخير منها إلى النفوس مختلفة، فينبغي أن تؤتى كل نفس من بابها.

---

[1] – المعجم الكبير للطبراني حديث رقم (7679): 162/8.

[2] – مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا﴾ [الإسراء: 32].

ISSN: 2707- 8655
EISSN:2707-8663

4- الخصيصة الرابعة: المبادرة إلى ترسيخ القيم في الصغر قبل الكبر.

قديما قيل عن التعلم في الصغر: "إنه كالنقش في الحجر[1]، ومثل ذلك يمكن أن يقال في شأن التربية على القيم المحمودة وغرسها؛ فلا ريب أن ذلك أدعى إلى ثبوتها ورسوخها، وهي حقيقة أنشدت فيها أشعار كثيرة؛ منها: قول بعضهم[2]:

إنَّ الْغُصُونَ إذَا قَوَّمْتَهَا اعْتَدَلَتْ ... وَلا يَلِينُ إذَا قوَّمْتَه الخَشَبُ

قَد يَنفَعُ الأَدَبُ الصَغير في ... وَلَيسَ يَنفَعُ في ذِي الشَيبَةِ الأَدَب[3]

ومنها أيضا: قول صالح بن عبد القدّوس[4]:

وَإِنَّ مَنْ أَدَّبْتَه في الصَّبَا ... كَالْعُودِ يُسْقَى الْمَاءَ في غَرْسِهِ

حتّى تراه مورقا ناضرا ... بعد الذي أبصرت من يبسه.

والناظر في السيرة يجد جملة كثيرة من الأمثلة الدالة على أن النبي ﷺ كان حريصا على تنمية القيم وترسيخها لدى الصغار؛ لعلمه ﷺ أهمية ذلك وأثره البالغ، وأن النفس أسرع إلى قبول الخير قبل تلويثها، وأن من شب على شيء شاب عليه، وأن من دأب على القيم الذميمة صعب عليه التخلص منها، وأن من تربى على القيم الحميدة قلما يفارقها، وإن فعل رجع إلى أصله في الغالب.

فمن الأمثلة التي تدل على عناية النبي ﷺ بتنمية القيم الإيجابية لدى الصغار: ما روي عن عمر بن أبي سلمة ﷺ أنه قال: «كنت غلاما في حجر رسول الله ﷺ وكانت يدي تطيش في الصحفة، فقال لي رسول الله ﷺ: يا غلام، سم الله، وكل بيمينك، وكل مما يليك"[5]؛ قال

---

[1] – فتح الباري: 83/9؛ إرشاد الساري: 474/7؛ منحة الباري: 307/8.

[2] – نسب إلى صالح بن عبد القدوس، ينظر الأمثال لأبي عبيد: 121؛ الحماسة للبحتري: 461؛ جمهرة الأمثال: 280/2.

[3] – تنبيه النائم الغمر: 48.

[4] – المحاسن والأضداد للجاحظ (30)، الحيوان للجاحظ (33/1)، الحماسة للبحتري (461)، العقد الفريد لابن عبد ربه (272/2).

[5] – صحيح البخاري، كتاب الأطعمة، باب التسمية على الطعام والأكل باليمين: 68/7؛ صحيح مسلم، كتاب الأشربة، باب آداب الطعام والشراب وأحكامها: 109/6.

الباجي: "يريد بذلك ﷺ تعليمه وتأديبه تأديب مثله في الموضع الذي يلزم ذلك فيه[1]... وقوله "وكل مما يليك" يريد من الطعام على سبيل التعليم له والإرشاد إلى حسن الأدب"[2].

وقال القاضي عياض: "قوله: " كل مما يليك "وهى أيضا سنة متفق عليها؛ لأن كل أكل جاء ما يليه من الطعام فإدخال غيره يده عليه وتركه ما أمامه قبيح، ومشاركته له فيما فيه حوزة بغير إذنه، مع ما في ذلك من تقزز النفوس بما خاضت فيه الأيدى، واختلف فيه أصابع الغير، وليس كل أحد يستحسن ذلك منهم لاسيما في الطعام الرطب والأمراق وأشباهها؛ ولما فيه من الجشع والحرص على الطعام، وإيثار النفس على المؤاكل، وكل هذا مذموم؛ ولأنه إذا كان نوعا واحدا فلا فائدة في ذلك إلا سوء الأدب وشرههم بذلك"[3].

ومما ورد في هذا الباب أيضا ما روي عن ابن عباس ﷺ أنه قال: كنت رديف رسول الله ﷺ فقال: " يا غلام، أو يا غليم، ألا أعلمك كلمات ينفعك الله بهن؟ " فقلت: بلى. فقال: " احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده أمامك، تعرف إليه في الرخاء، يعرفك في الشدة، وإذا سألت، فاسأل الله، وإذا استعنت، فاستعن بالله...واعلم أن في الصبر على ما تكره خيرا كثيرا، وأن النصر مع الصبر، وأن الفرج مع الكرب، وأن مع العسر يسرا"[4]

ففي هذا الحديث جملة من القيم العظيمة الجليلة التي عمل النبي ﷺ على ترسيخها في نفس صاحبه ابن عباس وهو غلام؛ ومنها حفظ أمانة الله، والتعرف إلى الله، والاستعانة بالله، والصبر...وذلك ببيان جزائها وثمراتها في العاجل والآجل.

كما ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم ربى بعض الغلمان على قيمة الإحسان والإتقان[5]، وبعضهم على اجتناب الإفساد[6]، وبعضهم على قيمة الرفق[7]، وبعضهم على

---

(1) – المنتقى: 351/3.

(2) – المنتقى: 250/7.

(3) – إكمال المعلم: 488/6؛ ينظر: مثل ذلك في المفهم: 207/5.

(4) – إكمال المعلم: 488/6.

(5) – كتعليمه ﷺ غلاما إحسان سلخ الشاة، ينظر صحيح ابن حبان: 211/7.

(6) – كمنعه ﷺ غلاما من رمي النخل بالحجارة، وأمره بالاكتفاء بالأكل مما يسقط في أسفلها. ينظر سنن ابن ماجة، أبواب التجارات، باب من مر على ماشية قوم أو حائط هل يصيب منه: 398/3.

(7) – كقصة أنجشة الذي أمره ﷺ بالرفق في السير لكي لا تسرع الإبل بنشاطها بسبب الحداء فتسقط عنها النساء. ينظر صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب ما جاء في قول الرجل ويلك: 38/8. صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب في رحمة النبي ﷺ للنساء وأمر السواق مطاياهن بالرفق بهن: 79/7.

ISSN: 2707- 8655
EISSN:2707-8663

قيمة الأمانة[1]، وبعضهم على قيمة التنزه عن المحرمات والمستقذرات، والزهد في قبول العطايا[2]، وبعضهم على قيمة الطاعة والاستجابة والامتثال[3]؛ فالغلمان وإن كانوا غير مكلفين فحسن جدا أن يتدربوا بذلك"[4]، فلا يرشدون إلا وقد تشبعوا بالفضائل والمكارم والمحاسن، وجميل الخلال، وعظيم الخصال.

5- **الخصيصة الخامسة: الشمول.**

المقصود بالشمول هاهنا: أن النبي ﷺ حث وحض على كل الفضائل ورغب فيها بما يمكن من السبل، كما أنه حذر من كل الرذائل، ونهى عنها ولم يدخر جهدا في هذا الباب، وقد بين ﷺ أن تنمية جميع القيم الحميدة من أعظم مقاصد بعثته؛ حيث قال: « إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق»[5]، ولاشك أن إتمام هذه الأخلاق الصالحة لا يتحقق إلا بمحاربة ما يناقضها.

ولم يكن منهجه ﷺ تجزيئيا -كما هو حال كثير من المؤسسات المختلف مجالها- حيث صارت العناية عندها بقيم مخصوصة، ولا تتعداها إلى غيرها، وصارت لا يهمها من القيم إلا ما يخدم بعض مصالحها الدنيوية العاجلة...أي أنها لا تهتم بتنمية القيم وترسيخها في المجتمع لأنها تستحق هذا الاهتمام، وإنما تتوسل بالقيم لحفظ المصالح وتحقيق الربح المادي، فالقيم عندها وسيلة وليست غاية.

أما تتبع الهدي النبوي الشريف في هذا الشأن فيفيد أنه ما من قيمة محمودة إلا وتحلى بها النبي ﷺ، ودعا إليها وسعى إلى ترسيخها بأساليبه المختلفة؛ لعلمه أن القيم وحدة ومنظومة لا

---

(1) – كقصة تسميته ﷺ الغلام عبد الله بن بسر (غدر) لأنه أكل قطف العنب الذي أمر أن يوصله إلى رسول الله ﷺ. ينظر سنن ابن ماجة، أبواب الأطعمة، باب أكل الثمار: 460/4. الطب النبوي: 716/2.

(2) – كأمره ﷺ الحسن بن علي رضي الله عنهما بطرح تمرة من تمر الصدقة كان قد جعلها في فيه. ينظر صحيح البخاري، كتاب الزكاة، باب ما يذكر في الصدقة للنبي ﷺ: 127/2. صحيح مسلم، كتاب الزكاة، باب تحريم الزكاة على رسول الله ﷺ، وعلى آله وهم بنو هاشم وبنو المطلب دون غيرهم: 117/3.

(3) – قال أنس ﷺ: «كان رسول الله ﷺ من أحسن الناس خلقا، فأرسلني يوما لحاجة، فقلت: والله لا أذهب! وفي نفسي أن أذهب لما أمرني به نبي الله ﷺ، فخرجت حتى أمر على صبيان وهم يلعبون في السوق، فإذا رسول الله ﷺ قد قبض بقفاي من ورائي، قال: فنظرت إليه وهو يضحك، فقال: يا أنيس، أذهبت حيث أمرتك؟ قال: قلت: نعم، أنا أذهب يا رسول الله" صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب: كان رسول الله ﷺ أحسن الناس خلقا: 74/7.

(4) – ينظر فتح الباري: 55/3.

(5)– مسند أحمد بن حنبل، مسند أبي هريرة: 513/14؛ الأدب المفرد، باب حسن الخلق: 104/1.

تتجزأ، وأن بعضها يرتبط ببعض، أو يكمله، أو يسانده ويعضده...فكانت السيرة النبوية بذلك مصدر استقاء كل القيم وموردها؛ سواء كانت دينية إيمانية، أو اجتماعية، أو اقتصادية، أو سياسية، أو إنسانية عالمية[1].

وهذا الشمول في تنمية القيم وترسيخها هو المنهج الصحيح الذي ينبغي أن نسلكه اليوم خاصة بعدما اندرست معظم القيم أو كادت، لا أن نهتم ببعض ونهمل بعضا[2]؛ فقد ينتج عن التفريط في قيمة واحدة تفريط في جملة من القيم المرتبطة بها، والأمر نفسه يقال في القيم المذمومة التي إذا ابتلي الإنسان ببعضها ربما انتقل إلى متعلقاتها؛ فمن كان يسيء الظن بالناس – مثلا– تجسس ليتيقن مما ظنه بهم[3]، وإذا اطلع على أمر قد يبادر إلى اغتيابهم، وإذا اغتابهم فربما تصلهم غيبته[4]، فينتج عن ذلك تباغض وقطيعة وعدوان، فيصير المجتمع بذلك أشتاتا؛ فقد يؤول أمر سوء الظن إذن إلى التنازع والتقاطع والتدابر والتمزق والضعف وذهاب الريح. وهذا ما يمكن أن يستفاد من نظم آية الحجرات التي يقول فيها ربنا ﷻ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱجْتَنِبُواْ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌۖ وَلَا تَجَسَّسُواْ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًاۚ﴾[5].

6- الخصيصة السادسة: تنوع الأساليب وتكاملها.

هذه الخصيصة من أهم خصائص الهدي النبوي في ترسيخ القيم؛ ودليل قاطع وبرهان ساطع على أن منهجه ﷺ في التربية محفوف بالحكمة؛ ذلك أن النبي ﷺ لم يترك منهجا قويما ولا سبيلا قاصدا إلا سلكه لتنمية القيم وترسيخها، فلم يقتصر على بعض السبل دون بعض؛ لأنه ﷺ يعلم أن الناس معادن وألوان، فما ينفع مع هذا من الأساليب قد لا يجدي مع ذاك، وأيضا فإنه ﷺ يعلم أن لكل حال ومقام أسلوبا مناسبا، وأن بين تلك الأساليب تكاملا، وأنها على اختلافها تجتمع في مقصد واحد؛ وهو تنمية القيم المحمودة وترسيخها.

---

(1) – هذا تقسيم تعليمي تقريبي فحسب، وإلا فهذه الأقسام متداخلة.

(2) – ولا بأس بتخصيص مزيد من العناية والاهتمام ببعضها عند الحاجة والاقتضاء.

(3) – قال الطاهر بن عاشور: "التجسس من آثار الظن؛ لأن الظن يبعث عليه حين تدعو الظان نفسه إلى تحقيق ما ظنه سرا" التحرير والتنوير: 250/26.

(4) – الغيبة "تشتمل على مفسدة ضعف في أخوة الإسلام، وقد تبلغ الذي اغتيب فتقدح في نفسه عداوة لمن اغتابه فينثلم بناء الأخوة" التحرير والتنوير: 256/26.

(5) – [الحجرات: 12].

وقد كان من أساليبه ﷺ في هذا الشأن: أسلوب القصة، وأسلوب ضرب المثل، وأسلوب الترغيب، وأسلوب الترهيب، وأسلوب الخطب والمواعظ، وأسلوب تلاوة القرآن، وأسلوب التأديب والعقاب، وأسلوب التحلي والتربية بالحال والقدوة، وأسلوب الإثارة، وأسلوب الهجر، وأسلوب المكافأة والجزاء العاجل والآجل...وقد يكون بين بعض هذه الأساليب تداخل أو تكامل أو عموم وخصوص، لكنني أثرت أفراد الخاص منها بالذكر لأهميته.

7- الخصيصة السابعة: التأني وعدم استعجال النتائج.

نحن اليوم في حاجة ماسة إلى مراعاة هذا المنهج لضعف القيم الحميدة في نفوس كثير من الناس، وغلبة وهيمنة القيم الغربية الغريبة الفاسدة، وكثرة الوسائل والمعاول التي تنقض منظومة القيم الإسلامية، فليس من السهل نقل الناس من حال إلى حال، بل لابد من صبر جميل وتأن وتدرج، فمن دون ذلك يصعب بلوغ المقاصد، ولله در القائل:

لا تعجلن لأمر أنت طالبه فقلما يدرك المطلوبَ ذو العجل

فذو التأني مُصيب في مقاصده وذو التعجل لا يخلو عن الزلل[1]

ومما يمكن أن يشهد لهذا المنهج النبوي أنه جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: إن فلانا يصلي الليل، فإذا أصبح سرق، فقال: «إنه سينهاه ما تقول»[2]؛ قال ابن حجر: "فمثل هذه الصلاة لا محالة تنهاه فيتوب عن السرقة قريبا، فالسين على أصلها من التنفيس؛ إذ لا بد من مزاولة الصلاة زمنا حتى يجد منها حالة في قلبه تمنعه من الإثم"[3].

ويمكن أن يستفاد هذا المنهج أيضا من قوله ﷺ: " والله ليتمن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من المدينة إلى حضرموت لا يخاف إلا الله والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون"[4]؛ ففي هذا الحديث "تحريض على الصبر على الأذى، والتحمُّل على المشاق، وعدم الاستعجال في الأمور"[5]، ومنها النصر وهو المراد هاهنا[6]، ولا يمكن أن يربي النبي ﷺ أصحابه على

---

[1] – روض الأخيار المنتخب من ربيع الأبرار: 191.

[2] – مسند أحمد، مسند المكثرين من الصحابة: 483/15.

[3] – مرقاة المفاتيح: 931/3.

[4] – مسند أحمد، مسند البصريين: 552/34.

[5] – شرح المصابيح: 269/6.

[6] – منحة الباري: 643/6.

التأني وعدم الاستعجال ثم يخالفهم في ذلك، بل كان ﷺ سباقا إلى كل ما يدعو إليه من القيم الحميدة، والأخلاق الفاضلة.

وتتبع السنة وأحداث السيرة يفيد أنه لم يكن من هديه ﷺ استعجال ثمرات ونتائج تربية الناس على القيم الإسلامية الحميدة، وهذا المنهج ينطبق على كل القيم، حتى وإن كانت أعظمها وأجلها؛ فقد ظل ﷺ ما يقارب ثلاث عشرة سنة يربي الناس على قيمة التوحيد وغيرها من أمهات الفضائل ويرسخها في نفوسهم، ولم يستعجل؛ حتى إنه ﷺ ليؤذيه البعض من قومه فيقول : "اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون"[1]؛ قال ابن هبيرة: "وإنما هو الرفق بالخلق والأناة بهم والصبر عليهم، ولا سيما إذا كانوا لا يعلمون فيصبر انتظارًا لهم أن يؤمنوا"[2].

فغرس القيم وتنميتها وترسيخها في النفوس لا يتحقق بدرس أو موعظة أو خطبة أو ندوة علمية، بل لابد من جهود عظيمة متكاملة ومتتابعة لسنوات عديدة، تستثمر فيها كل الوسائل، وتستخدم مختلق الأساليب، وتراعى فيها أرقى المناهج.

8- الخصيصة الثامنة: الجمع بين مخاطبة العقول ومخاطبة القلوب.

معلوم الخطاب الذي يؤثر في القلوب مختلف كثيرا عن الخطاب الذي يمكن أن يؤثر في العقول وتتفاعل معه، والواقع يثبت لنا أن من الناس من يتأثر أكثر بالكلام الذي يوجه إلى القلب، ومنهم من يحب الخطاب العقلي المنطقي، بل إن الفرد الواحد يكون تارة مهيأ للخطاب القلبي، وتارة أخرى للخطاب العقلي، وتارة أخرى لهما معا، وقد يكون في بعض الأحيان غير مهيأ لتلقي أي نوع من أنواع الخطاب.

ولعله من الدواعي التي جعلته ﷺ -وهو طبيب النفوس والعقول- يجمع بين مخاطبة العقول والقلوب عند رغبته ﷺ في تنمية قيمة من القيم الحميدة، أو إماتة ومحاربة قيمة ذميمة؛ فنجده ﷺ أحيانا يربي الناس على القيم بمخاطبة عقولهم، وأحيانا بمخاطبة قلوبهم، وأحيانا بالجمع بين السبيلين؛ فقد يبدأ بخطاب عقلي، ثم يختمه بخطاب قلبي كما في قصة الشاب الذي

---

[1] – صحيح البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء: 175/4. صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة أحد: 179/5.

[2] – الإفصاح عن معاني الصحاح: 72/2.

استأذنه في الزنا، وقد يعكس الأمر كما في قصة الصحابي الذي جاء بهدية بعدما ولاه؛ حيث قال له ﷺ: " أفلا جلس في بيت أبيه وأمه حتى تأتيه هديته"[1].

ويكاد يكون خطابه عقليا خالصا أحيانا كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما، حيث قال: قال رسول الله ﷺ: «خمس بخمس» قالوا: يا رسول الله وما خمس بخمس؟ قال: «ما نقض قوم العهد إلا سلط عليهم عدوهم، وما حكموا بغير ما أنزل الله إلا فشا فيهم الفقر، ولا ظهرت فيهم الفاحشة إلا فشا فيهم الموت، ولا طففوا المكيال إلا منعوا النبات وأخذوا بالسنين، ولا منعوا الزكاة إلا حبس عنهم القطر»[2].

9- الجمع بين ربط القيم بآثارها الدنيوية، وآثارها الأخروية.

لم يكن من منهج النبي ﷺ الاقتصار على ترسيخ القيم عن طريق ربط المتحلي بها بالجزاء الأخروي أو المصلحة الآجلة، بل ربطهم أيضا بالجزاء الدنيوي العاجل، فيكون هنالك دافعان يحملان الفرد على الرغبة في التحلي بالفضائل، والتخلي عن الرذائل؛ وهما: دافع المصلحة العاجلة، ودافع المصلحة الآجلة، فمن الناس من تغلب عليه الرغبة في المنافع الدنيوية فتكون حاملا له على تحسين أخلاقه وتنميتها لما يعلم من المصالح التي يمكن أن يحققها والثمرات التي يمكن أن يجنيها إذا التزم بالمكارم والفضائل، واجتنب الرذائل والمساوئ.

المطلب الثاني: الأساليب العملية في ترسيخ القيم.

سبق بيان أن من خصائص الهدي النبوي في تنمية القيم وترسيخها كثرة الأساليب وتكاملها؛ فقد كان منها: القصة، وضرب المثل، والخطب والمواعظ، وتلاوة القرآن، والتأديب والعقاب، والهجر، والتربية بالحال أو القدوة، والترغيب، والترهيب، المواثيق والعهود....وهذا بيان بعضها:

---

[1] – صحيح البخاري، كتاب الحيل، باب: احتيال العامل ليهدى له: 28/9. صحيح مسلم، باب تحريم هدايا العمال، باب تحريم هدايا العمال: 11/6.

[2] – المعجم الكبير، حديث رقم (10992): 45/11.

1- حفظ القيم وترسيخها عن طريق المواثيق والمعاهدات.

لقد عقد النبي ﷺ جملة من المعاهدات تم خلالها الاتفاق على حفظ بعض القيم الإنسانية النبيلة والالتزام بها[1]؛ كقيمة السلام، والأمن، والأمانة، والتناصر، والتناصح، والإصلاح، والإحسان، والتعاون، والبر، والمعروف، والوفاء، والعدل، والتسامح، والتعايش، وحسن الجوار...وكان من بين هذه المعاهدات: معاهدة أهل المدينة[2]، ومعاهدة صلح الحديبة[3]، ومعاهدة أهل نجران[4]، ومعاهدة أهل مقنا[5]، ومعاهدة بني ضمرة[6]...

ولا ريب أن هذه المعاهدات مما يمكن أن يرسخ كثيرا من القيم في نفوس الناس ويشعرهم بمزيد من الاهتمام بها وعدم الاستهانة بشأنها؛ إذ لا يمكن أن يستهان بها والحال أنها تعقد لها المعاهدات، وتكتب لأجلها المواثيق، ويتوعد بمعاقبة من يناقضها.

2- حفظ القيم وترسيخها عن طريق العقوبات التأديبية.

تقدم أن من منهج النبي ﷺ الجمع بين حفظ القيم من جانب الوجود، وحفظها من جانب العدم[7]؛ فلم يكتف ﷺ بإقامة أركان القيم وتثبيت أصولها، بل اهتم كذلك بدرء الاختلال عنها؛ سواء كان واقعا أو متوقعا.

فكان من سبل حفظ القيم وتثبيتها في المجتمع معاقبة وتأديب من يخل بها، وقد يدخل هذا في باب الجنايات، قال الشاطبي: "والجنايات -ويجمعها الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر- ترجع إلى حفظ الجميع من جانب العدم"[8]، وإن كان قد قال هذا الكلام في سياق الحديث عن الضروريات الخمس إلا أنه يصدق في حق القيم أيضا.

---

[1] - هنالك بحث مفيد بعنوان "أثر المعاهدات النبوية المتعلقة بحسن الجوار في علاقات الدولة الإسلامية"، لعبد الفتاح عبد الكريم البلعسي.

[2] - سيرة ابن هشام: 501/1؛ عيون الأثر: 227/1؛ السيرة النبوية لابن كثير: 321/2.

[3] - مغازي الواقدي: 610/2؛ سيرة ابن هشام: 317/2؛ السيرة النبوية وأخبار الخلفاء: 284/1.

[4] - دلائل النبوة: 389/5.

[5] - مغازي الواقدي: 1032/3؛ المصباح المضي: 317/2.

[6] - سبل الهدى والرشاد: 14/4.

[7] - الموافقات للشاطبي (18/2).

[8] - الموافقات: 19/2.

ISSN: 2707- 8655
EISSN:2707-8663

ولما كان التفريط في القيم الحميدة سبب خراب المجتمع، وكان من الناس من لا تنفع معه إلا العقوبة؛ جاء النبي ﷺ بجملة من العقوبات الزجرية الرادعة كي لا تتفشى القيم الذميمة، ولا تضعف القيم الحميدة.

والقيم الإسلامية على الرغم من فطريتها وأهميتها وأثرها في إسعاد البشرية فهنالك من يأبى إلا مناقضتها، ولذلكم كان النبي ﷺ حريصا على حفظها وتنميتها وترسيخها عن طريق العقوبات والتعازير التي تزجر الناس وتمنعهم المفاسد الخلقية، وتحسم مادة الانحلال الخلقي، فالله ﷻ يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن.

فلا ريب أن العقوبات روادع وزواجر، ولذلك كانت سبيلا قويا لحفظ القيم الحميدة وتنميتها، ومحاربة القيم الذميمة وإماتتها، ومن هذا الباب معاقبة ناكثي العهود وناقضي المواثيق التي تم الاتفاق فيها على الالتزام بجملة من القيم، كمعاقبة قريش على نقض معاهدة صلح الحديبية، ومعاقبة يهود بني قينقاع، ثم بني النضير، ثم بني قريظة بعدما نقضوا العهود؛ حيث عمدت بنو قينقاع إلى كشف عورة امرأة من المسلمين والسخرية منها، وحاولت يهود بني النضير قتل النبي ﷺ، وتحالفت بنو قريظة مع المشركين يوم الأحزاب وأرادت أن تأتي المسلمين من ظهورهم وقد كانت معاهدة لهم[1].

ومما يجدر ذكره هاهنا أن تنمية القيم وترسيخها عن طريق العقوبات شمل أفرادا من المسلمين أيضا؛ ومما ورد في هذا الباب حفظ قيمة العفة عن طريق عقوبة جلد غير المحصن، أو رجم المحصن، وقد تم ذلك في عهد النبي ﷺ؛ ومنه رجم ماعز[2]، ورجم المرأة الغامدية بعد إقرارهما بالزنا[3]، وكان من مقاصد ذلك حفظ قيمة العفة.

فلو أن مثل هذه العقوبات تنزل بمن يقترف فاحشة الزنا في هذا العصر لما كان حال المجتمعات الإسلامية كما هو عليه الآن، ولما عمت هذه الفاحشة وطمت، فعصرنا أحوج إلى هذه الزواجر[4] من عهد النبي ﷺ والصحابة ﷺ، لضعف إيماننا، وكثرة الفتن في زماننا، وقلة

---

[1] – زاد المعاد: 100/5.

[2] – صحيح مسلم، كتاب الحدود، باب من اعترف على نفسه بالزنى: 118/5.

[3] – صحيح مسلم، كتاب الحدود، باب من اعترف على نفسه بالزنى: 120/5.

[4] – ليس المراد أن السبيل الوحيد لحفظ المجتمع من تفشي الفواحش هو العقاب، فهنالك سبل كثيرة معلومة، لكن القصد أن العقاب من أهم السبل، وأن هنالك فئة لا ينفع معها إلا العقاب.

من يعين على الخير، وتيسير سبل الفواحش والمنكرات. وربما تكون هذه العقوبات مما يعين الفرد على الالتزام بقيمة العفة حينما يضعف إيمانه؛ فيمنعه إيمانه حين قوته وجدته، ويمنعه الخوف من العقاب عند ضعف إيمانه وغلبة هواه وشيطانه.

3- أسلوب المراقبة.

هذا الأسلوب مستفاد من حديث أبي هريرة الذي جاء فيه « أن رسول الله ﷺ مر على صبرة طعام فأدخل يده فيها، فنالت أصابعه بللا، فقال: ما هذا يا صاحب الطعام؟ قال: أصابته السماء، يا رسول الله. قال: أفلا جعلته فوق الطعام كي يراه الناس؟ من غش فليس مني »[1].

ويمكن أن يسمى هذا الأسلوب بالحسبة؛ فبفضله يمكن صيانة المجتمع من الانحلال الخلقي، وحماية الفضيلة في المجتمع، فلابد مراقبة الواقع المعيش، وواقع وسائل الإعلام والتواصل الحديثة، وإحداث هيئات خاصة لمحاربة كل من يشيع الفواحش والمنكرات والأخلاق السيئة، وإلزام مختلف وسائل الإعلام بمراعاة الأخلاق الفاضلة واجتناب مساوئ الأخلاق في مختلف برامجها. وسيكون كل ذلك على وفق هدي النبي ﷺ؛ فمن دون مراقبة سيكون بإمكان أي أحد أن يشيع ما يريد من القيم.

4- أسلوب ضرب المثل.

ضرب المثل من أهم الأساليب التي استعملها النبي ﷺ لترسخ القيم الحميدة، والقضاء على القيم الذميمة أو إضعافها، وتكمن أهميته في الانتقال بالفرد من الصور المعنوية المدركة بالعقل إلى الصور الحسية المشاهدة بالعين الجارحة، "لتقرب المعاني إلى الأفهام"[2]، فيكون بذلك هذا الأسلوب أبلغ في التأثير وأنفع في الأثر.

والأمثلة في شأن هذا الأسلوب كثيرة، ومن أروعها: ما روي عن النعمان بن بشير ﷺ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَثَلُ المؤمنين في توادِّهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى»[3].

---

[1] – صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب قول النبي ﷺ: من غشنا فليس منا: 69/1.

[2] – المنهاج: 140/16.

[3] – صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب، باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم وتعاضدهم: 20/8.

ISSN: 2707- 8655
EISSN:2707-8663

فقد حث هذا الحديث على جملة من أهم القيم التي توحد المسلمين وتقويهم وتيسر لهم سبل النصر على عدوهم؛ كقيمة التوادد، والتراحم، والتعاون، والتناصر؛ قال القاضي عياض: "فيه الحض على تعاون المسلمين، وتناصرهم، وتآلفهم، وتوادهم، وتراحمهم"[1].

فالتمثيل في هذا الحديث "يفيد الحض على معونة المؤمن للمؤمن ونصرته، وأن ذلك أمر متأكد لا بد منه، فإن البناء لا يتم أمره، ولا تحصل فائدته إلا بأن يكون بعضه يمسك بعضا ويقويه، فإن لم يكن كذلك انحلت أجزاؤه، وخرب بناؤه؛ وكذلك المؤمن لا يستقل بأمور دنياه ودينه إلا بمعونة أخيه ومعاضدته ومناصرته"[2].

وقد استعمل النبي ﷺ هذا الأسلوب في الحض على الزهد في الدنيا[3]؛ فعن ابن مسعود: أن رسول الله ﷺ نام على حصير، فقام وقد أثر في جسده، فقال ابن مسعود: يا رسول الله! لو أمرتنا أن نبسط لك ونعمل، فقال «ما لي وللدنيا، ما أنا والدنيا، إنما أنا والدنيا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها»[4]؛ "أي ليس حالي مع الدنيا إلا كحال راكب مستظل، وهو من التشبيه التمثيلي، ووجه التشبيه سرعة الرحيل وقلة المكث؛ ومن ثم خص الراكب"[5].

ولأجل الزهد في الدنيا أيضا جعل النبي ﷺ شأنها أحقر من الجدي الأسك الميت؛ فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ مر بالسوق داخلا من بعض العالية، والناس كَنَفَتَيْه (أي جانبيه)، فمر بجدي أسك ميت، فتناوله فأخذ بأذنه ثم قال: أيكم يحب أن هذا له بدرهم؟ فقالوا: ما نحب أنه لنا بشيء، وما نصنع به؟ قال: أتحبون أنه لكم؟ قالوا: والله لو كان حيا كان عيبا فيه لأنه أسك، فكيف وهو ميت! فقال: فوالله، للدنيا أهون على الله من هذا عليكم»[6].

---

[1] – إكمال المعلم: 56/8.

[2] – المفهم: 565/6.

[3] – واستعمله ﷺ أيضا للترغيب في كثير من الفضائل، الترهيب من الرذائل.

[4] – مسند أحمد، مسند بني هاشم: 473/4؛ سنن الترمذي، أبواب الزهد: 588/4.

[5] – شرح المشكاة: 3290/10؛ المفاتيح: 286/5؛ شرح المصابيح: 399/5.

[6] – صحيح مسلم، كتاب الزهد والرقائق: 210/8.

فقوله: "أيكم يحب؟" في هذا الاستفهام إرشاد منه ﷺ وتنبيه، ينبههم ﷺ على إلقاء السمع للخطاب الخطير، وشهود القلب لما يعني به من الخطب الجليل؛ وهو هوان الدنيا ليوطن ذلك في قلوبهم مزيد توطين، ويقرره تقريراً بعد تقرير"[1].

5- أسلوب التشويق[2] عن طريق التكرار.

هذا الأسلوب مستفاد من حديث عن معاذ بن جبل ﷺ الذي قال فيه: «بينا أنا رديف النبي ﷺ ليس بيني وبينه إلا أخرة الرحل، فقال: يا معاذ قلت: لبيك رسول الله وسعديك، ثم سار ساعة، ثم قال: يا معاذ، قلت: لبيك رسول الله وسعديك، ثم سار ساعة، ثم قال: يا معاذ، قلت: لبيك رسول الله وسعديك قال: هل تدري ما حق الله على عباده؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئا، ثم سار ساعة، ثم قال: يا معاذ بن جبل، قلت: لبيك رسول الله وسعديك، فقال: هل تدري ما حق العباد على الله إذا فعلوه؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: حق العباد على الله أن لا يعذبهم»[3]

قال الكرماني: "أراد بذكره المبالغة في شدة قربه ليكون أوقع في نفس سامعه لكونه أضبط، وأما تكريره ﷺ [قوله: يا معاذ] ثلاثا فلتأكيد الاهتمام بما يخبره وليكمل تنبيه معاذ فيما يسمعه"[4]، وقال علي القاري: "تكرير النداء لتأكيد الاهتمام بما يخبر، وليكمل تنبيه معاذ فيما يسمعه فيكون أوقع في النفس وأشد في الضبط والحفظ"[5]، ففي هذا الحديث تشويق ؛ حيث إنه ﷺ أخرجه بصيغة السؤال، فلو أنه ﷺ أخبر معاذا ﷺ ما أراد إخباره به من أول الأمر ابتداء من غير تَكرار، ولا سؤال ما كان ذلك ليكون له وقعه في السمع والقلب، كما إذا كرره، وأخرجه في صورة سؤال"[6]، لترسيخ قيمة التوحيد في النفس.

---

[1] – شرح المشكاة: 3272/10.

[2] – ممن أشار إلى هذا الأسلوب فاروق خلف الجبوري في بحث بعنوان: "المنهج النبوي في غرس القيم الإيمانية، ومدى ممارسته من قبل معلمي التربية الإسلامية في ظل التحديات المعاصرة في محافظة المفرق".

[3] – صحيح البخاري، كتاب اللباس، باب إرداف الرجل خلف الرجل: 170/7. صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب من لقي الله بالإيمان وهو غير شاك فيه دخل الجنة وحرم على النار: 43/1.

[4] – الكواكب الدراري: 21/23؛ التوضيح : 229/28؛ عمدة القاري: 72/29.

[5] – مرقاة المفاتيح: 98/1.

[6] – توفيق الرب المنعم بشرح صحيح الإمام مسلم: 98/1.

6- الجزاء على القيمة من جنسها.

هذا الأسلوب في غاية الأهمية، لما فيه من التحفيز على المبادرة إلى التحلي بالفضائل؛ والأمثلة في هذا الباب كثيرة جدا، بلغت مبلغ التواتر المعنوي؛ منها أنه ﷺ أخبرنا: أن من وصل الرحم وصله الله، ومن أحب الناس لله أحبه الله، ومن يسر على معسر يسر الله عليه، ومن أنفق أنفق الله عليه، ومن عفا عن الناس عفا الله عنه، ومن أحسن أحسن الله إليه، ومن أعان الناس أعانه الله، ومن ستر مسلما ستره الله، ومن قضى حاجة غيره قضى الله حاجته... والأحاديث الدالة على هذه المعاني كثيرة جدا لا يتسع المقام لعرضها؛ ولا ريب أن الفرد حينما يعلم علم يقين أنه متى تحلى بقيمة حميدة وعامل بها الخلق عامله بها الخالق ﷻ: يحرص غاية الحرص على التخلق بتلك القيم ويأطر نفسه عليها أطرا، ويقاومها حتى تستقيم له على الطريقة.

7- أسلوب الترغيب.

هو أسلوب عظيم تعددت طرقه وتنوعت؛ فأحيانا يرغب النبي ﷺ في قيمة حميدة باعتبارها صدقة يمكن أن يتصدق بها الفقير والغني، أو أنها من القيم التي يفرح الله بها، وأنها من أسباب نيل محبة الله ومحبة نبيه ﷺ، أو أن المتصف بهذه القيمة يكون مع النبي ﷺ في الجنة، أو يضمن له النبي ﷺ بيتا في الجنة، أو يكون بفضلها من الذين يظلهم الله في ظله أو ينالون رضاه سبحانه، أو يكافئهم ﷻ من جنس القيم التي يتصفون بها، أو أن تلك الفضائل بدائل عن أعمال عظيمة لمن لم يستطعها.

وقد يرغبهم ﷺ في القيم عن طريق تعزيز التنافس عليها بمدح المتصفين بها[1]، أو أنهم سيرون آثار اتصافهم ببعضها في الدنيا قبل الآخرة؛ من ذلك ما صح عن أنس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «من أحب أن يبسط له في رزقه وينسأ له في أثره، فليصل رحمه»[2]؛ و"معنى البسط في رزقه هو البركة؛ لأن صلته أقاربه صدقة، والصدقة تربى المال وتزيد فيه، فينمو بها ويزكو، ومعنى قوله: (وينسأ في أثره) أى: يبقى ذكره الطيب وثناؤه الجميل مذكورا على

---

[1] – هنالك بحث مهم في هذا الباب بعنوان "التعزيز في الحديث النبوي وأثره الفاعل في زيادة الدافعية للسلوك الإيجابي" للدكتور سعيد بن نزال العنزي، مجلة العلوم الشرعية، جامعة القصيم، المجلد (8)، العدد (1)، (محرم 1436هـ/أكتوبر 2014م).

[2] – صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب من بسط له في الرزق بصلة الرحم: 5/8. صحيح مسلم، كتاب البر والصلة والآداب باب صلة الرحم، وتحريم قطيعتها: 8/8.

الألسنة، فكأنه لم يمت"[1]، أو أن «صلة الرحم يكون من ثوابها بسط الرزق وتطويل العمر»[2].

8- أسلوب الترهيب.

إنه أسلوب نبوي -يقابل الأسلوب السابق- يرتبط بالقيم المذمومة، ومما تميز به تعدد طرقه؛ فقد يحذر ﷺ ويخوف من قيمة بأن الله يبغض صاحبها، أو أنها سبب غضب الله، أو أنها من الكبائر والموبقات والمهلكات، أو أن من كان من أهلها لم يكن على هدي النبي ﷺ، وأن الله لا يكلمه، ولا ينظر إليه، أو يقطعه الله، أو يحرم عليه الجنة ويدخله النار، أو يعاقبه بعقوبات دنيوية عاجلة، أو يحذره منها لما فيها من مشابهة غير المسلمين؛ من المشركين، والمنافقين، وأهل الكتاب، مثل ما روي عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان»[3].

وربما يحذر من هذه القيم الذميمة ببيان أضرارها سواء كانت هذه الأضرار دنيوية أم أخروية؛ مثل قوله ﷺ: "خمس بخمس". قالوا يا رسول الله، وما خمس بخمس؟ قال: "ما نقض قوم العهد إلا سلط عليهم عدوهم، وما حكموا بغير ما أنزل الله إلا فشا فيهم الفقر، وما ظهرت فيهم الفاحشة إلا فشا فيهم الموت، ولا طفّفوا الكيل إلا مُنعوا النبات وأُخذوا بالسنين، ولا مَنعوا الزكاة إلا حُبس عنهم القَطْر"[4].

9- أسلوب القصة.

لاريب أن أثر هذا الأسلوب معلوم قديما وحديثا، فلا جدال في فوائده في التعليم والتربية، ومما يميزه أنه يمكن أن يستعمل مع جميع الناس على اختلاف مراتبهم وأحوالهم، وأجناسهم، ولذلك أعمله النبي ﷺ كثيرا، ومن الأمثلة في هذا الشأن: ترسيخ قيم العفة، وبر الوالدين، والأمانة، وإيصال الخير إلى الغير من خلال قصة أصحاب الغار الثلاثة الذين توسلوا بصالح

---

[1] - شرح صحيح البخاري لابن بطال: 206/6.

[2] - الإفصاح عن معاني الصحاح: 7/ 326.

[3] - صحيح البخاري، كتاب الإيمان، باب علامة المنافق: 16/1. صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق: 56/1.

[4] - المعجم الكبير، حديث رقم (10992): 45/11.

ISSN: 2707- 8655
EISSN:2707-8663

الأعمال[1]؛ قال القاضي عياض: " فيه جواز القرب إلى الله تعالى بما علم العبد أنه أخلصه من عمل صالح ومناجاته تعالى بذلك. وفيه فضل بر الوالدين، والكف عن المعاصي، وترك الشهوات، ومعونة المسلم، والسعي له بالخير في ماله وجميع حاله، وفيه فضل الأمانة وأدائها"[2].

ومن الأمثلة التي يتجلى فيها التوسل بالقصة لترسيخ القيم أيضا: ترسيخ قيمة الرفق والرحمة عن طريق قصة المرأة التي حبست الهرة حتى ماتت، وقصة البغي التي سقت كلبا ماء، وترسيخ قيمة بر الوالدة عن طريق قصة جريج....

10- أسلوب التحلي أو ترسيخ القيم بالقدوة[3].

لم يكتف رسول الله ﷺ بالدعوة إلى القيم الحميدة بأقواله، بل دعا إليها بأفعاله وأحواله أيضا، وكذلك شأنه ﷺ في النهي عن القيم الذميمة؛ لسان حاله ﷺ يقول: ﴿وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أُخَالِفَكُمۡ إِلَىٰ مَآ أَنۡهَىٰكُمۡ عَنۡهُۚ﴾[4]، ومن المعلوم أنه لما سئلت عائشة رضي الله عنها عن خلق رسول الله ﷺ قالت: "كان خلقه القرآن"[5]؛ فاستحق ﷺ بذلك أن يكون قدوة للناس في كل شيء؛ في القيم وغيرها، مصداقا لقوله تعالى: ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ﴾[6].

فلقد كان النبي ﷺ أحلم الناس قبل أن يدعوهم إلى الحلم، وأرحم الناس قبل أن يدعوهم إلى الرحمة، وأجود الناس قبل أن يدعوهم إلى الجود، وأعدل الناس قبل أن يدعوهم إلى العدل، وأشجعهم قبل أن يدعوهم إلى الشجاعة، وأوفاهم قبل أن يدعوهم إلى الوفاء، وأخشاهم لله وأتقاهم قبل أن يدعوهم إلى الخشية والتقوى، وكان أزهدهم في الدنيا قبل أن يدعوهم إلى الزهد فيها، وقل مثل ذلك في باقي القيم الحميدة.

---

[1] – صحيح البخاري، كتاب الأدب، باب إجابة دعاء من بر والديه: 8/3. صحيح مسلم، كتاب الرقاق، باب قصة أصحاب الغار الثلاثة، والتوسل بصالح الأعمال: 89/8.

[2] – إكمال المعلم: 236/8.

[3] – هنالك بحوث وكتب كثيرة أشارت إلى هذا الأسلوب لأهميته؛ منها كتاب: مناهج التربية؛ أسسها وتطبيقاتها لعلي أحمد مدكور، ومقال بعنوان "الهدي النبوي في فقه التربية السلوكية" للدكتور رشيد كهوس.

[4] – [هود: 88].

[5] – الأدب المفرد: 160.

[6] – [الأحزاب: 21].

كما كان ﷺ أبعد الناس عن القيم الذميمة، وأبغضهم لها، وأشدهم حرصا على إماتتها وتخليص النفوس من أدرانها، وتطهير المجتمع من خبثها، وأكثرهم عناية بتربية أصحابه على التخلص من آثارها. فالنبي ﷺ يعلم أن الأفعال والأحوال أشد تأثيرا في النفوس؛ إذ الكلام يحسنه كثير من الناس، لذلكم كان ﷺ حريصا على تنمية الأخلاق الفاضلة والقيم الجميلة بأحواله وأفعاله، فلم يكن كثير الكلام عن القيم، بل كان سباقا إلى التحلي بها، ملازما لها، لا يفارقها ولا تفارقه على أي حال.

وأود هاهنا أن أشير إلى بعض القيم التي عمل النبي ﷺ على ترسيخها بأفعاله وتصرفاته أكثر من أقواله، فمن هذا الباب: قيمة الشورى[1] التي قال فيها أبو هريرة ﷺ: "ما رأيت أحدا أكثر مشاورة لأصحابه من رسول الله ﷺ"[2]؛ فقد استشار ﷺ المرأة كما استشار الرجل، واستشار الأفراد كما استشار الجماعة، واستشار صاحبيه أبا بكر وعمر رضي الله عنهما خاصة في أمور كثيرة مهمة وعظيمة من شؤون الأمة.

فشاور ﷺ أصحابه في الخروج لغزوة بدر –خاصة الأنصار منهم–[3]؛ وشاور ﷺ أبا بكر وعمر وعليا –بعد المعركة– في شأن الأسرى[4]، وشاور ﷺ أصحابه ﷺ في مكان خوض غزوة أحد[5]؛ هل يقاتلون من داخل المدينة أم خارجها؟ وكان رأي النبي ﷺ أن يقاتل داخل المدينة، لكنه وافَق رأي الأغلبيَّة، وقرَّر مُغادَرة المدينة والخروج إلى أُحُد. وفي غزوة حمراء الأسد عندما عَلم النبي ﷺ أن قريشًا قد عزمت على العودة – بعد غزوة أُحُد – إلى المدينة، شاور النبي ﷺ أبا بكر الصديق وعُمر بن الخطاب، فأشارا عليه بالخروج إلى حمراء الأسد "لتخويف العدوّ فيظنوا به قوة، وأن الذي أصابهم لم يوهنهم عن عدوّهم كي لا يجرؤوا على الرجوع إلى المدينة..."[6]

---

[1] – قال ابن تيمية: "قيل: إن الله أمر بها نبيَّه؛ لتأليف قلوب أصحابه، وليَقتدي به مَن بعده، وليَستخرج بها منهم الرأيَ فيما لم يَنزِل فيه وحي؛ مِن أمْر الحروب، والأمور الجزئية، وغير ذلك، فغيرُه ﷺ أولى بالمشورة" السياسة الشرعية " : 126.

[2] – صحيح ابن حبان: 95/7؛ السنن الكبرى: 73/7.

[3] – صحيح مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب غزوة بدر: 170/5.

[4] – المصنف: 440/20؛ مسند أحمد، مسند الخلفاء الراشدين: 334/1.

[5] – صحيح البخاري، كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة، باب قول الله تعالى ﴿وأمرهم شورى بينهم﴾ : 112/9.

[6] – مغازي الواقدي: 326/1؛ سُبل الهُدى والرَّشاد: 4/ 308.

ISSN: 2707- 8655
EISSN:2707-8663

وفي غَزوة الأحزاب شاوَر أصحابه في خطَّة الدِّفاع التي يَدفعون بها جيوش الأعداء، فأشار سلمان الفارسي بحفْر الخَندق، وفي صلح الحديبية استشار النبي ﷺ أم سلمة في شأن امتناع الصحابة عن التحلل من العمرة، فأشارت عليه بالتحلل ليقتدي به الصحابة ويبادروا إلى الامتثال ففعل، وامتثل الصحابة ﷺ.

وفي غزوة تبوك عِندما وصَل النبيُّ ﷺ إلى تبوكَ وأقام بها عِشرين ليلةً ولم يَلْقَ جيش الروم، استشار مَن معه من المسلمين في التقدُّم شمالاً من تبوك، فأشار عمر بن الخطاب بعدم التقدُّم[1].

ومن ذلك أيضا ما قام به النبي ﷺ عِندما كانت الأحزاب تُحاصِر المدينة وتُريد الانقِضاض عليها، فشاور النبي ﷺ أصحابه ﷺ في مصالحة غطفان على شيء مِن ثمار المدينة فأبى الصحابة إلا المناجزة والحرب، وفي غزْوَة الطائف؛ عِندما حاصر النبي ﷺ أهلَ الطائف في حِصنهم ولم يتمكَّن مِن فتْحِه، استشار نوفل بن معاوية الديلي، وفي حادِثة الإفك عندما رُميت الطاهرة العفيفة أمُّ المؤمنين عائشة رضي الله عنها بما رميت به، واستَلْبَث الوحي، دعا رسول الله ﷺ عليّا بن أبي طالب، وأسامة بن زيد ليَستشيرهُما في فِراق أهله. وغير هذا كثير؛ فقد كانت حياته تطبيقا عمليا حيا لكل القيم سواء كانت دينية تعبدية، أم سياسية، أم اجتماعية، أم اقتصادية، أم إنسانية عالمية؛ فهو ﷺ قدوة لكل الناس على اختلاف أحوالهم ومراتبهم.

11- أسلوب تلاوة القرآن وتدبره المثمر للتزكية.

لعله ﷺ أعمل هذا الأسلوب أكثر لترسيخ القيم الإيمانية التعبدية: كالإيمان، والخشوع، والتقوى، والخشية، واليقين...قال فريد الأنصاري: "وهكذا نرى أن القرآن كان هو المادة الأساس التي اعتمدت في إدخال الناس إلى الإسلام...ثم إن الرسول ﷺ اعتمده وحده كمادة تربوية للترقي بأصحابه في مقامات الإيمان، كما اعتمد نصوصه المكية في تشكيل شخصياتهم، وبنائها تربويا في الجلسات الأرقمية العظيمة[2]، "وكانت الآيات وقطع السور التي تنزل في هذا

[1] – مغازي الواقدي: 3/ 1019؛ سُبُل الهُدى والرَّشاد: 461/5.

[2] – التوحيد والوساطة في التربية والدعوة: (49)

الزمان: آيات قصيرة، ذات فواصل رائعة منيعة، وإيقاعات هادئة خلابة، تتناسق مع الجو الهامس الرقيق، تشتمل على تحسين تزكية النفوس، وتقبيح تلويثها برغائم الدنيا"[1].

فلا ريب أن القرآن أعظم وأنفع سبل التزكية؛ لذلك كان النبي ﷺ يقرأه ويتلوه على أصحابه، ويدارسهم أحكامه وأسراره، ويبين منه ما تدعو الحاجة إليه، ويعرب عن بعض مقاصده، ويدعوهم إلى العناية به قراءة وترتيلا وحفظا وتعاهدا وفهما وتدبرا وعلما وتعليما وعملا؛ وذلك لعلمه ﷺ أنه لا يمكن لهذه النفس أن تتزكى وهي بعيدة عن كتاب الله، ومحجوبة عن نور الله.

وقد بين ربنا ﷻ أن سماع القرآن سبيل زيادة الإيمان[2]؛ ولذلك ربى النبي ﷺ أصحابه على سماع القرآن من غيرهم تحقيقا للتدبر المثمر للتزكية؛ فعن عبد الله بن مسعود ﷺ أنه قال: قال لي النبي ﷺ: «اقرأ علي»، قلت: يا رسول الله، آقرأ عليك، وعليك أنزل، قال: «نعم» فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾[3]، قال: «حسبك الآن» فالتفت إليه، فإذا عيناه تذرفان"[4].

قال ابن القيم: "فليس شيء أنفع للعبد في معاشه ومعاده، وأقرب إلى نجاته من تدبر القرآن، وإطالة التأمل، وجمع الفكر على معاني آياته؛ فإنها تُعَرفه النفس وصفاتها...تُريه الحق حقًا والباطل باطلًا، وتُعطيه فرقانًا ونورًا يفرق به بين الهُدى والضلال، والغي والرشاد، وتعطيه قوة في قلبه، وحياة وسعة وانشراحًا وبهجة"[5].

12- أسلوب الهجر.

لابد أن نشير هاهنا إلى أن النبي ﷺ استعمل هذا الأسلوب للتربية والتأديب لكن لم يكن من هديه ﷺ المداومة عليه أو الإكثار من اللجوء إليه؛ فقد هجر ﷺ الصحابة الثلاثة الذين خلفوا خمسين يوماً، كما هجر أزواجه شهرا[6]، وما كان له ﷺ أن يهجرهم لولا علمه أن هجره لهم

---

[1] – الرحيق المختوم: 66.

[2] – حيث قال ﷻ: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: 2].

[3] – [النساء: 41].

[4] – صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب قول المقرئ للقارئ حسبك: 196/6. صحيح مسلم، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل استماع القرآن، وطلب القراءة من حافظه للاستماع والبكاء عند القراءة والتدبر: 551/1.

[5] – مدارج السالكين: 450/1.

[6] – صحيح البخاري، كتاب النكاح، باب موعظة الرجل ابنته لحال زوجها: 28/7. صحيح مسلم، كتاب الطلاق، باب في الإيلاء واعتزال، النساء، وتخييرهن: 192/4.

ISSN: 2707- 8655
EISSN:2707-8663

سيحقق المصلحة المرجوة، ولذلك لا ينبغي اللجوء إلى الهجر إلا عند حصول الظن الغالب أنه سيجلب المنفعة المبتغاة، ومتى كان سببا في تمادي المهجور وزيادة طغيانه منع ولزم التوسل بوسيلة أخرى غيره، فالوسائل تعطى حكم المقاصد.

ويمكن أن يهجر الفرد المعروف بقيمه الذميمة وأخلاقه السيئة وأحواله غير المرضية أكثر من ثلاث إذا كان ذلك مما يمكن أن يرده إلى الطريق القويم، فيحسن أخلاقه؛ قال ابن العربي: "وأما إن كانت الهجرة لأمر أنكر عليه من الدين كمعصية فعلها أو بدعة اعتقدها فيهجره حتى ينزع عن فعله وعقده؛ فقد أذن النبي ﷺ في هجران الثلاثة الذين خلفوا خمسين ليلة حتى صحت توبتهم عند الله فأعلمه فعاد إليهم"[1].

ولذلك لا يمكن التوسل بأسلوب الهجر لتأديب الولد أو الزوج أو الأخ أو الجار أو الصديق، وتربيته على القيم الفاضلة والأخلاق الحسنة إلا بعد معرفة حال هذا الذي يراد هجره، وفقه نفسه؛ فقد يكون هذا الأسلوب غير مناسب في بعض الأحوال أوغير ملائم لبعض الأفراد، فنفسد من حيث نريد الإصلاح، ونضر من حيث نريد النفع.

وعموما فإن هذا الأسلوب يمكن أن ينفع مع بعض ممن نحبهم ويحبوننا؛ فعندئذ يمكن أن يكون للهجر أثر بالغ في النفوس، فتتم محاسبتها، فتعترف بالأخطاء والتقصير، ثم ترجع إلى رشدها؛ يشهد لذلك ما روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: "كان رسول الله ﷺ إذا اطلع على أحد من أهل بيته يكذب كذبة، لم يزل معرضا عنه حتى يحدث لله توبة"[2] قال صالح المنجد–بعد نقل هذه الرواية وغيرها–: "ويتضح من الروايات السابقة أن الإعراض عن المخطئ حتى يعود عن خطئه أسلوب تربوي مفيد، ولكن لكي يكون نافعا لابد أن يكون الهاجر والمعرض له مكانة في نفس المهجور، وإلا فلن يكون لهذا الفعل أثر إيجابي عليه، بل ربما يشعر أنه قد استراح"[3].

---

[1] – عارضة الأحوذي: 91/8.

[2] – التمهيد: 686/1.

[3] – الأساليب النبوية في التعامل مع أخطاء الناس: 97.

المطلب الثالث: بعض أوجه القصور في تنمية القيم وترسيخها في الواقع المعيش.

1- قلة العناية بتنويع الأساليب، أو سوء اختيار الأسلوب المناسب.

وهذا الأمر قد لا يسلم منه كثير من الآباء، والمربين، والخطباء، والمرشدين، والوعاظ...إما بسبب الغفلة، أو بسبب قلة الزاد من العلم، أو بسبب الجهل بكثير من الأساليب، أو عدم المعرفة بأهمية تنويعها؛ فتجد الأب مثلا لا يربي ابنه على القيم إلا بأسلوب الترهيب، أو العقاب، أو النهي غير المقترن بحجة ولا بيان...ولا يعلم أن هذا الخطاب قد لا يناسب ذلك الطفل، أو لا يقنعه ولا يجدي مع أمثاله.

ومن مظاهر قلة الاهتمام بالأساليب المناسبة للتربية على القيم المحمودة وتنميتها؛ أن نجد كثيرا من المسؤولين عن هذه الأمانة يخاطبون مختلف الناس بأسلوب واحد، على اختلاف أحوالهم النفسية، وطبقاتهم، وطبائعهم، وتفاوتهم من حيث العلم أو الإيمان، وهذا الأمر مما يجب التنبيه عليه، اقتداء بالنبي ﷺ الذي علم الأعرابي الذي بال في المسجد، والصحابي معاوية بن الحكم السُّلَمي الذي تكلم أثناء الصلاة؛ علمهما بأسلوب مختلف عن أسلوب صحابته ﷺ.

ومما يعين على حسن اختيار الأسلوب المناسب أيضا العناية بالأحوال العامة، ومراعاة السياق والمقام، والزمان والمكان، والتأني وعدم الاستعجال؛ ولذلك لما غفل البعض عن ذلك لم يحسنوا اختيار الأساليب المناسبة لتنمية القيم أو ترسيخها في النفوس، ولم يعرفوا متى يتحدثون عن هذه القيمة ومتى يتكلمون عن غيرها؛ فتجد بعضهم يحدث الناس عن قيمة لا صلة لها بالزمان ولا بالسياق، وإن تعجب فعجب حال خطيب قوم خصص خطبة العيد للحديث عن قيمة العفة، ومع أن هذا الأمر مما يمجه الذوق السليم إلا أن الواقع يثبت أن مثله كثير الوقوع.

2- التأثر بالمنهج الغربي الانتقائي التحريفي.

من معالم المنهج الغربي التعامل بانتقائية مع القيم الإسلامية، فلا يأخذ منها إلا ما يخدم مصالحه، ويحقق به النفع المادي البحث العاجل، كما أنه يعيد صياغة وتشكيل معاني هذه القيم على وفق قيمه ومبادئه، ثم يقول بتعميم هذه المعاني بواسطة وسائله السحرية فيتلقفها كثير من الناس وهم لا يعلمون ما فيها من الدخل، ومما يترتب عن ذلك من المفاسد أن

النشء لا يربى على منظومة القيم الإسلامية، بل على قيم متأثرة بروح غربية، ويخدم هذا المشروع كثير من المؤسسات والمنظمات والهيئات المختلفة المهيمنة في واقعنا المعاصر، والتي تستطيع اختراق البيوت والحصون بسبب التمكين لها، لذلك نحن في حاجة ماسة إلى بذل جهد كبير للتقليل من خطر وضرر هذا المكر والكيد العظيم.

3- ضعف استثمار القانون لحماية القيم.

بعدما سادت القيم الغربية الغريبة، وهيمنت الوسائل الحديثة المسخرة لفرضها وإحلالها محل القيم الإسلامية الأصيلة، واستهان الناس بشأن هذه القيم، أصبحنا في حاجة ماسة إلى حفظها عن طريق القوانين الملزمة التي تفرض على الناس الالتزام بها وتمنعهم من انتهاك حرمتها.

ولقد تفطن الغرب لهذا الأمر قديما حيث فرض كثيرا من قيمه عن طريق القانون، فصارت بعد حين جزءا من القيم الراسخة في مجتمعاتهم، فكثير من القيم الحسنة التي نرى لها أثرا في واقع الغرب اليوم محمية بقوانينهم، فلا يستطيع أحدهم أن يخالفها خوفا من العقاب.

فالمطلوب اليوم أن تفعل القوانين التي تخدم القيم الحميدة، وتحارب القيم الذميمة، وتسن قوانين أخرى لمواجهة التحديات الخلقية المعاصرة؛ فهذا المنهج ليس جديدا، بل تشهد له –من الهدي النبوي– الحدود والتعازير، والعقوبات الشرعية التأديبية، ونظام الحسبة، فهنالك أمور كثيرة يجب أن تفرض، ومن دون ذلك لن نرى أثرا كبيرا على الرغم من الجهود التي تبذل لتنمية القيم، والواقع يثبت أن حال القيم في كثير من المجتمعات الإسلامية التي تسخر القوانين لخدمة القيم أفضل بكثير من حال المجتمعات التي تترك الناس يتمردون على الأخلاق بدعوى عدم التدخل في الحرية الشخصية، وأن كل فرد مسؤول عن نفسه.

4- التأخر في التربية على القيم والانشغال عنها بغيرها.

من أوجه القصور في كثير من الجهود التي تبذل من أجل ترسيخ القيم الإسلامية الحميدة التأخر وعدم المبادرة إلى تنميتها وترسيخها في نفوس الصغار بدعوى أنهم غير مكلفين، وأنهم لا يستوعبون الأمور جيدا في هذا السن، وأنه يمكن استدراك ذلك عندما يكبرون ويرشدون، وأن كثيرا من الصغار كانوا على حال غير مرضي ثم صاروا في شأن آخر حينما رشدوا...

وهذا مخالف لمنهج النبي ﷺ الذي كان يربي الصغار على مختلف الأخلاق الحسنة، ويأمر بتربيتهم على القيم الحميدة، وقد تتبعت كثيرا من الأحاديث التي تبين عنايته ﷺ الفائقة

واهتمامه البالغ بتربية الغلمان والصغار على القيم الإسلامية[1]، وأكثر من ذلك أنه ﷺ كان يربيهم على أداء الواجبات قبل أن تجب عليهم مثل الصلاة بقصد التمرين والاعتياد والاستئناس؛ دليل ذلك قوله ﷺ: «مُرُوا أولادكم بالصلاة وهم أبناء سبع سنين، واضربوهم[2] عليها وهم أبناء عَشْر»[3]؛ قال المظهري: "يعني: إذا بلغ أولادكم سبع سنين فأمروهم بأداء الصلاة؛ ليعتادوا ويستأنسوا بالصلاة، فإن لم يفعلوا فلا تضربوهم، فإذا بلغوا عشر سنين ولم يصلوا فاضربوهم"[4].

وهكذا لا يكبر الأبناء إلا وهم قد أشربوا حب الأخلاق الفاضلة، والقيم النبيلة، فلا يرضون عنها بديلا، ولا يريدون لها تحويلا، والواقع يثبت أن كثيرا ممن تربوا على هذه القيم غالبا ما يثبتون عليها، وحتى إن حادوا عنها مرة سرعان ما يرجعون إلى الأصل؛ حيث يشعرون أنهم يسلكون طريقا غير منسجم مع ما تشبعت به نفوسهم وصبغت به أرواحهم.

والمقصود بالانشغال عن القيم بغيرها هاهنا أن كثيرا من الآباء والمسؤولين صاروا يهتمون بالجانب العلمي المعرفي فحسب، وأصبحوا يبالغون فيما يسمونه بتأمين مستقبل أبنائهم، فيبذلون المال والجهد والوقت لتحقيق ما يرجون لأبنائهم من المراتب العلمية والمناصب والمكاسب، لكنهم غافلون عن تربية أبنائهم، فلا يخصصون لها إلا وقتا يسيرا، ولا يبذلون في شأنها جهدا كبيرا.

5- قلة الاستفادة من شروح الحديث وكتب التفسير.

من المعلوم أنه لا يمكن الحديث عن القيم الإسلامية النبيلة والأخلاق الحميدة دون الرجوع إلى أصولها من القرآن الكريم والسنة الشريفة والسيرة النبوية، ومن المعلوم كذلك أنه ليس بإمكاننا أن ندرك ونفهم معاني وأسرار النصوص الشرعية الواردة في شأن هذه القيم إلا بالاستعانة بالمصنفات التي صنفها العلماء في تفسير الآيات وشرح الأحاديث، ونراعي مناهجهم في فهم

---

(1) – سبق بسط الكلام في ذلك عند الحديث عن خصيصة المبادرة إلى ترسيخ القيم في الصغر قبل الكبر.

(2) – قال ابن عثيمين: "المراد الضرب الذي يحصل به التأديب بلا ضرر... لأن النبي ﷺ إنما أمر بضربهم لا لإيلامهم ولكن لتأديبهم وتقويمهم" شرح رياض الصالحين: 173/3.

(3) – سنن أبي داود، كتاب الصلاة، باب متى يؤمر الغلام بالصلاة: 185/1.

(4) – المفاتيح في شرح المصابيح: 12/2؛ ينظر كذلك: شرح المشكاة: 870/3.

النصوص، فمن دون ذلك إما أن نسيء الفهم، وإما أن تفوتنا أمور مهمة جدا تلزمنا معرفتها فنسيء تنزيل المعاني على الوقائع والأحوال.

فكثير من الناس يظنون أن حفظ بعض الآيات القرآنية ومعرفة بعض الأحاديث النبوية المتعلقة بموضوع القيم كافية، لكن الأمر ليس كذلك؛ فلا بد من الاطلاع على كتب التفسير لمعرفة أسباب النزول، وفهم معاني الآيات القرآنية واكتشاف مقاصدها وأسرارها وحكمها، ولا بد من الرجوع إلى شروح الحديث لفقه الأحاديث، ومعرفة أسباب ورودها، والعلم بمقاصدها، ومعرفة أحوال المخاطبين بها، والتميز بين عامها وخاصها، ومطلقها ومقيدها، وناسخها ومنسوخها، وراجحها ومرجوحها، وما هو من قضايا الأعيان، وما جاء خاصا لكن أريد به العموم.

ذلكم مما يعين على فهم منهجه ﷺ على الوجه الأكمل، كما يعين على تنزيله على الوقائع والأحوال المختلفة، وكل ذلك مبسوط في هذا الضرب من المصنفات التي لا يمكن الاستغناء عنها، ولا يمكن أن تتحقق الاستفادة من منهج النبي ﷺ على أتم وجه إلا بالرجوع إليها.

وقد اطلعت على جملة من البحوث في هذا الشأن فلم أجد ذلك الحضور القوي لكتب التفسير وشروح الحديث، على الرغم مما فيها من الدرر، والفوائد القيمة والحكم البليغة، والمناهج البديعة، والأساليب الفريدة، والناظر في واقع كثير من الآباء والمربين والمعلمين والمرشدين والخطباء يجد أنهم قلما يستفيدون من هذه المصنفات في تنمية القيم وترسيخها، وغاية ما يصنعه كثير منهم أن يتلو على الناس بعض الآيات أو يعرض عليهم ما يحفظ من الأحاديث، وأحيانا يفسرها حسب فهمه القاصر، فلا يبلغ المقصود.

6- ضعف التكوين المعرفي والمنهجي لدى كثير من المربين.

إن كثيرا ممن يتولون أمانة تنمية القيم أو التربية على الأخلاق الإسلامية على الرغم من رغبتهم الصادقة، ونيتهم الصالحة تبقى جهودهم خداجا إذا لم يتزودوا بما يكفي من المعارف والمناهج، وذلك لقوة الخصم الذي يجتهد في نقض منظومة القيم بشتى السبل، وأقوى وأخطر الوسائل، ولا يتوقف ولا يكل ولا يمل.

لذلك ينبغي الحرص على تكوين كل من توكل إليه هذه الأمانة العظيمة تكوينا علميا ومنهجيا قاصدا، شاملا ومستمرا؛ يقتبس النور من الهدي النبوي، ويستثمر مختلف الوسائل الحديثة

أحسن استثمار، ويتم خلاله تخصيص وقت كاف لدورات تدريبية عملية، قصد تحسين التعامل مع الأحوال المختلفة، والتمكن من تقليل خطر وضرر التحديات المعاصرة التي تواجه منظومة القيم.

خاتمة:

أرى من الضروري هاهنا أن أذكر أهم الخلاصات والنتائج التي توصلت إليها خلال هذه الرحلة المباركة والجولة العلمية، فمن تلك النتائج:

– مما ميز هدي النبي ﷺ، وكانت له آثار إيجابية جلية في تنمية القيم وترسيخها الخصائص الآتية: الجمع بين حفظ القيم من جانب الوجود وحفظها من جانب العدم، الجمع بين مخاطبة العقول ومخاطبة القلوب، الجمع بين ربط القيم بآثارها الدنيوية وآثارها الأخروية، الجمع بين الترغيب والترهيب، المداومة مع الاقتصاد والتوسط، المبادرة إلى ترسيخ القيم في الصغر قبل الكبر، تنوع الأساليب وتكاملها، الشمول، حسن اختيار الأساليب والأحوال، عدم استعجال النتائج.

– الأساليب النبوية التي سخرت لتنمية القيم وترسيخها كثيرة جدا؛ منها: القصة، وضرب المثل، والخطب والمواعظ، وتلاوة القرآن، والتأديب والعقاب، والهجر، والتربية بالحال أو القدوة، والترغيب، والترهيب، المواثيق والعهود، المراقبة...

– تحديات العصر الكبرى، وكثرة الوسائل والمؤسسات المسخرة لهدم صرح منظومة القيم؛ كل ذلك يؤكد أن تنمية القيم وترسيخها يحتاج إلى شيء كثير من العلم، وحسن الفهم وبالغ الحكمة، وفقه عميق للنصوص الشرعية والواقع لحسن تنزيل معانيها وأسرارها عليه.

– تبين عن طريق الاستقراء أن معظم الخصائص المنهجية العامة، وجل الأساليب النبوية العملية الخاصة بتنمية القيم وترسيخها تقرر مثلها في القرآن الكريم، ولا غرابة في ذلك فقد أوتي ﷺ القرآن ومثله معه.

– لا يمكن تحقيق الفوائد المرجوة من مشاريع تنمية القيم وهي بعيدة عن الهدي النبوي الذي هو خير الهدي وأفضله، فعلى قدر الاقتداء به يكون الرشد والسداد، وعلى قدر البعد عنه يكون الغي والفساد.

– الجهود التي تبذل لتنمية القيم الإسلامية الحميدة وترسيخها تفتقر إلى ترشيد لتجاوز أوجه القصور فيها والتي من بينها: قلة العناية بتنويع الأساليب، وسوء اختيار الأساليب والأحوال المناسبة، والتأثر بالمنهج الغربي الانتقائي التحريفي، وضعف استثمار القانون لحماية القيم، والتأخر في التربية على القيم والانشغال عنها بغيرها، وقلة الاستفادة من شروح الحديث وكتب التفسير، وضعف التكوين المعرفي والمنهجي.

– من سبل ترشيد البحوث الخاصة بمشاريع تنمية القيم الإسلامية الاستفادة من كتب التفسير وشروح الحديث، لما فيها من الدرر السنية، والفوائد القيمة، والحكم البليغة، والمناهج البديعة، والأساليب الفريدة.

المصادر والمراجع:

ابن أبي شيبة، عبد الله بن محمد، المصنف في الأحاديث والآثار لأبي، تحقيق: كمال يوسف الحوت،، مكتبة الرشد الرياض، ط1، 1409 هـ.

ابن الجوزي، تنبيه النائم الغمر تحقيق: محمد بن ناصر العجمي، دار البشائر الإسلامية. ط1، (1425هـ/2004م).

ابن الجوزي، كشف المشكل من حديث الصحيحين، تحقيق: علي حسين البواب، دار الوطن (الرياض). (ب ط، ب ت).

ابن العربي، عارضة الأحوذي، دار الكتب العلمية (بيروت).، (ب ط، ب ت)

ابن القيم، زاد المعاد، مؤسسة الرسالة (بيروت). ط27، (1415هـ)،

ابن القيم، مدارج السالكين، تحقيق: محمد المعتصم بالله، دار الكتاب العربي (بيروت). ط3، (1416 هـ/ 1996م).

ابن الملقن، التوضيح لشرح الجامع الصحيح، تحقيق: دار الفلاح للبحث العلمي وتحقيق التراث بإشراف خالد الرباط– جمعة فتحي، دار النوادر، (دمشق) ط1، (1429هـ).

ابن بطال، شرح صحيح البخاري، تحقيق: أبي تميم ياسر بن إبراهيم، مكتبة الرشد، (الرياض). ط2، (1423هـ).

ابن حبان، صحيح ابن حبان، ترتيب: علاء الدين علي بن بلبان الفارسي، تحقيق: شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة (بيروت). ط2، (1414 هـ/ 1993 م).

ابن حجر، فتح الباري، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي، دار المعرفة (بيروت). (ب ط) (1379هـ).

ابن دقيق العيد، شرح الإلمام بأحاديث الأحكام، تحقيق: محمد خلوف العبد الله، دار النوادر (سوريا). ط2، (1430 هـ – 2009 م).

ابن رجب، فتح الباري، تحقيق: محمود بن شعبان وآخرين، مكتبة الغرباء الأثرية (المدينة). ط1، (1417هـ).

ابن سيد الناس، عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير، تعليق: إبراهيم محمد رمضان، دار القلم (بيروت). ط1، (1414 هـ / 1993 م).

ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير، (تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد)، الدار التونسية (تونس). (ب ط)، (1984م).

ابن عبد ربه، أحمد، العقد الفريد، دار الكتب العلمية (بيروت). ط1، (1404 هـ)،

ابن هبيرة، الإفصاح عن معاني الصحاح، تحقيق: فؤاد عبد المنعم أحمد، دار الوطن. (ب ط)، (1417هـ)،

ابن هشام، سيرة ابن هشام، تحقيق: مصطفى السقا وآخرين، شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي (مصر). ط2، (1375هـ)،

أبو تمام، الحماسة، تحقيق: عبد العزيز الميمني الراجكوتي، دار المعارف، (القاهرة). ط3، (ب ت)،

أبو داود، سليمان بن الأشعث، السنن، تحقيق: شعيب الأرنؤوط ومحمد كامل قره بللي، دار الرسالة العالمية. ط1، (1430هـ/ 2009 م)،

الأماسي، محمد بن قاسم، روض الأخيار المنتخب من ربيع الأبرار لمحيي الدين ابن الخطيب، دار القلم العربي حلب. (1423هـ.

الأنصاري، زكريا بن محمد، منحة الباري بشرح صحيح البخاري، المسمى (تحفة الباري)، دراسة وتحقيق سليمان بن دريع العازمي، مكتبة الرشد للنشر والتوزيع الرياض، ط1، 1426 هـ /2005م.

الأنصاري، فريد، التوحيد والوساطة في التربية والدعوة، دار السلام (مصر). ط1، (1432هـ/2011م).

الباجي، المنتقى، مطبعة السعادة (مصر). ط1، (1332هـ).

البخاري، محمد بن إسماعيل، الأدب المفرد، دار البشائر الإسلامية (بيروت). ط3، (1409 هـ/ 1989م)،

البخاري، محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، تحقيق: مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير (دمشق). ط5، (1414هـ)،

الترمذي، محمد بن عيسى، السنن، تحقيق: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي (بيروت). (ب ط)، (1998 م)،

الجاحظ، عمرو بن بحر، البيان والتبين دار ومكتبة الهلال (بيروت).، (ب ط)، (1423هـ)،

الجاحظ، عمرو بن بحر، الحيوان، دار الكتب العلمية (بيروت). ط2، (1424هـ.

الجاحظ، عمرو بن بحر، المحاسن والأضداد، دار ومكتبة الهلال (بيروت). (ب ط)، (1423 هـ)،

حديدة، جمال الدين، المصباح المضي في كتاب النبي الأمي ورسله إلى ملوك الأرض من عربي وعجمي. تحقيق: محمد عظيم الدين، عالم الكتب (بيروت)، (ب ط، ب ت)،

الخطابي، أعلام الحديث، تحقيق: محمد بن سعد آل سعود، جامعة أم القرى (مركز البحوث العلمية وإحياء التراث الإسلامي). ط1، (1409هـ)،

رضا، محد رشيد، تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، الهيئة المصرية العامة للكتاب. (ب ط)، (1990م)،

السبتي، عياض بن موسى، إكمال المعلم بفوائد مسلم،. تحقيق: يحيى إسماعيل، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع (مصر). ط1، (1419 هـ/ 1998 م)،

الشاطبي، الموافقات، تحقيق: مشهور بن حسن آل سلمان، دار ابن عفان، ط1، (1418هـ)،.

الصالحي، محمد بن يوسف، سبل الهدى والرشاد، في سيرة خير العباد، وذكر فضائله وأعلام نبوته وأفعاله وأحواله في المبدأ والمعاد، تحقيق وتعليق: عادل أحمد عبد الموجود، علي محمد معوض، دار الكتب العلمية (بيروت). ط1، (1414 هـ / 1993 م)،

الطبراني، المعجم الكبير، تحقيق: حمدي بن عبد المجيد، دار النشر: مكتبة ابن تيمية (القاهرة). ط2، (ب ت)،

الطيبي، شرح الطيبي على مشكاة المصابيح المسمى بـ (الكاشف عن حقائق السنن)، تحقق: عبد الحميد هنداوي، مكتبة نزار مصطفى الباز (مكة المكرمة – الرياض). ط1، (1417 هـ / 1997 م)،

عبد الرحمن، طه، سؤال الأخلاق، المركز الثقافي العربي (الدار البيضاء). ط1، (2000م)،

العسكري، الحسن بن عبد الله، جمهرة الأمثال،. دار الفكر (بيروت). (ب ط، ب ت)،

العيني، عمدة القاري، دار إحياء التراث العربي (بيروت). (ب ط، ب ت)،

القاري، علي، مرقاة المفاتيح، دار الفكر، (بيروت). ط1، (1422هـ)،
القرطبي، أبو العباس، المفهم، تحقيق: محي الدين ديب وآخرين، دار ابن كثير (دمشق). ط1، (1417 هـ)،
القسطلاني، أحمد بن محمد، إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، المطبعة الكبرى الأميرية، (مصر). ط7، (1323 هـ)،
قطامش، عبد المجيد، الأمثال لأبي عبيد، دار المأمون للتراث، ط1، (1400هـ/1980م)، :.
كثير، إسماعيل بن عمر، السيرة النبوية، (من البداية والنهاية)، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، دار المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع (بيروت). (1395 هـ / 1976 م)،
المستعصمي، محمد بن أيدمر، الدر الفريد وبيت القصيد، تحقيق: كامل سلمان الجبوري، دار الكتب العلمية (بيروت). ط1، (1436هـ / 2015 م)،
مسلم، صحيح مسلم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه (القاهرة)، (1374هـ).
المظهري، الحسين بن محمود، المفاتيح في شرح المصابيح، تحقيق: نور الدين طالب وآخرون، دار النوادر. ط1، (1433 هـ / 2012 م)
النووي، المنهاج، دار إحياء التراث العربي (بيروت) ط2، (1392 هـ).
الواقدي، محمد بن عمر، المغازي، تحقيق: مارسدن جونس، دار الأعلمي (بيروت، ط3، 1409 هـ /1989 م.